

الفصل الثاني

مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

تدل عبارات المرء على عقليته وفكره، وتعكس أخلاقه وطبائعه، حتى قيل: «المرء مخبوء تحت لسانه» و«الأدب معرض لظهور الشخصية»^(١).

هذا على خلاف ما يتوهمه بعض الأدباء والنقاد، من أن قصارى الأديب إلزام نفسه بقوانين اللغة في تعبيره غير ملق بالآ إلى أن الإنسان مزيج من روح ومادة؛ إذ هو بذلك يهتم بالجانب المادي في العمل على حساب الجانب الروحي... وغير ملق بالآ إلى أن الأدب ما كان أدباً إلا لاشتماله على شيء من مبادئ التأديب، والتربية»^(٢).

«ومن هنا فالأديب ذو التوجه الإسلامي يلتزم بإقامة صياغته الفنية على العفة في اختيار ألفاظه؛ لأن ألفاظ اللغة أي لغة لا تصلح بالضرورة لكل موقف، وفي كل حالة.

(١) الأسلوب: أحمد الشايب، ص ١٢٧، الطبعة الثامنة، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، مكتبة النهضة، مصر.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ١٩٧.

فما يصلح للتعامل به مع النساء المتزوجات قد لا يصلح للتعامل به مع الفتيات الصغيرات، والكلمة قد تجرح الخلق، وقد تخدش الحياء، وقد تحمل من ظلال الأذى في موقف ما لا تحمله منها في موقف آخر، ولذلك قامت اللغة البيانية على الكناية، والتورية، كما قامت على التصريح^(١).

وعلى ذلك «فالأديب ذو التوجه الإسلامي هو الذي يحرص على الكلمة الطيبة، بل يتوجه إليها فطرياً في صياغته الأدبية، فلا مكان في أدبه للكلمة الخبيثة»^(٢)، وهو الذي يتخير من الأساليب ما يتناسب مع متلقيه في سمو وإبداع؛ ليحدث التأثير المطلوب.

وللتعرف على مظاهر التوجه الديني في أسلوب الطنطاوي في أدبه، يمكن الوقوف عليه من خلال المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: أسلوب الطنطاوي في خطبه.

المبحث الثاني: أسلوب الطنطاوي في قصصه.

المبحث الثالث: أسلوب الطنطاوي في تراجمه.

المبحث الرابع: أسلوب الطنطاوي في مقالاته.

(١) السابق، ص ١٩٨، ١٩٧.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ١٩٨.

المبحث الأول

أسلوب الطنطاوي في خطبه

الناظر فيما أثر من خطابة الطنطاوي على اختلاف موضوعاتها، يرى أنه كان حريصاً فيها على سلامة أسلوبه من التدني والإسفاف؛ انطلاقاً من توجهه الإسلامي، ومنهج السديد، ومن هنا رأيناه بعيداً في تعبيراته وألفاظه الخطابية عما يخدش الحياء، أو يؤذي السمع، أو يثير الاشمئزاز، حتى حينما كان يبلغ به الغضب مداه، والنقد المقذع منتهاه، فله حدود لا يتخطاها، وألفاظ سامية لا يتعداها، وإن كان تركها أولى، والبعد عنها أنفع، وهي قليلة كنعته للمذيع (أحمد سعيد) بالأحق السفية لإثارته العداوة، والوقية بين مصر والشام. يقول:

«وكنت أفتح هذه المحطة التي لست أدري لماذا كذبوا فسموها «صوت العرب» فكنت أسمع منها الكلام على حكام الشام، والوقية في أهل الشام بلسان هذا الأحق السفية الذي اسمه أحمد سعيد، فأحرك الإبرة شعرة واحدة، فأسمع دفاع محطة الشام، والكلام على حكام مصر فأسى، وأتألم لما صرنا إليه»^(١).

(١) من خطبه «تأييد الانفصال»، ذكريات علي الطنطاوي، ٨٠/٦.

والطنطاوي حين يصف انتهاك وعدوان الفرنسيين على أهل الجزائر بقوله:

«... فتصوّروا ما يصيب هؤلاء الناس... والجند قد دخلوا بسلاحهم إلى غرف نومهم، فيطيش الرجل عن أهله، ويقتل الأب أمام بناته، وينال من البنت بحضرة أبيها، والمرأة بعين زوجها، وإن هرب لحقه الموت...»^(١) يوقفنا على سلامة أسلوبه، وسموّه البياني بانتقائه من الألفاظ ما يفي بغرضه في سمو وإبداع. فـ «غرف نومهم»، و«يطيش الرجل عن أهله»، و«ينال من البنت بحضرة أبيها» ألفاظ ذات دلالات إيحائية، يصيب بها مقصده دون تدن، أو إسفاف حفاظاً على الأذواق، وارتقاءً بالمشاعر السويّة من جرحها بلفظ خبيث.

وفي التزام الطنطاوي العفة، نراه ملتزماً بالفصحى، محباً لها، حريصاً على نشرها، مؤمناً بجمالها، وكفايتها في بلوغ الغاية، وأداء المطلوب؛ لذلك كان يتوخى الفصاحة مع السهولة، والبلاغة مع السلاسة؛ ليشعر متلقيه بجمال الفصحى، وكفايتها. يقول عن دعوة الإسلام:

«هي دعوة الصدق، والاستقامة فلا يكون المسلم غشاشاً، ولا شحاذاً، ولا بطّالاً، ولا فظّاً غليظاً، ولا رخوا ذليلاً»^(٢).

(١) «في افتتاح أسبوع الجزائر»، ذكريات علي الطنطاوي، ٦٢/٥.

(٢) من خطبة «دعوة الإسلام» فصول إسلامية، ص ١٩.

ويعصف وقع خبر موت أستاذه عليه بقوله:

«... لقد تحققت أن سليم الجندي مات، فأحسست كأن قد زاغ بصري، وزلزلت أعصابي، ومزّ في أذني نهر هدار...»^(١).

فكلماته هنا تشفّ عما في نفسه: في استقامة أداء، والتزام قواعد، ووضوح معنى، وكأنما كان يتخير من معجمه الثري رحيق الكلمات ونورها في يسر وتدقّق وعذوبة، وخفّة وفصاحة؛ ليبرز جمال العربية، ويثبت كفايتها وقدرتها على تلبية حاجات النفس في أداء ما تريد، وإصابة ما تهدف.

وبذلك نرى أن الصيغة الفنية عند الطنطاوي خطيباً ذا توجه إسلامي واضح، كانت وسيلة اتصال جيد، وأداة تعبير مبين، تؤدّي دورها على الوجه الكامل، دون قصور أو تعثر، ودون زيف أو كلال^(٢).

وإذا كان الأسلوب هو الجانب الأصيل الذي يرتفع بالنصّ إلى مستوى الروائع الخوالة ويميز صاحبه من سواه^(٣) فإن هذه الأصالة في أسلوب الطنطاوي الخطابي تنبني على ركائز مميزة بدت في قرب ألفاظه مع سلامتها، وجمال التراكيب مع دلالتها، وعذوبة كلماته مع سلامتها، وخلوّها من السخافة والابتذال، والغرابة والغموض، مما

(١) من خطبة «أستاذنا الجندي» من حديث النفس، ص ١٢٤.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢١٠.

(٣) مقدمة في النقد الأدبي، د/ علي جواد الطاهر، ص ٣٢٢، ط ٢، المكتبة العالمية. بغداد سنة

جعل منها بجودة سبكه، وبراعة تأليفه لآلئ يصعب تقليدها، ويعزّ على المتمرس احتذاؤها، وتلك هي الروح الساكنة في الألفاظ، التي لا يبعثها ويظهر السحر فيها إلا خطيب أو أديب موهوب، خبير بتأليف الكلام، متذوق لتراكيبه، كخطيبنا علي الطنطاوي - رحمه الله.

وهذا يؤكد ما قيل: «من أن تفاوت التفاضل يقع في تراكيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشقّ؛ وألفاظ القرآن من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم، ويعلو عليه وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب»^(١).

كما يُلاحظ أن الطنطاوي في حرصه على أداء رسالته، وتوصيل دعوته، لم يتقيد بأسلوب واحد، بل نوع بين أساليب الخبر والإنشاء منتقلاً في ذلك بين الرقة، والقوة، والاستعطاف، والاستهجان حسبما يقتضيه المقام، وتتطلبه الحالة النفسية لمعالجته.

فمن ينظر مثلاً في خطبته «دعوة الإسلام» يلاحظ هدوء الأسلوب، ورقة العبارة، وعذوبة الألفاظ، وغلبة الخبرية عليه؛ لأن ذلك هو الأسلوب الذي يتناسب مع موضوعه الذي يدور حول الإشادة بالإسلام، وعرض مزاياه والتعرف على حقائقه. كقوله:

«...إن من معجزات الإسلام أنه سبق عصره سبقاً طويلاً، فصنع أمة ليس لها في وحدتها نظير من أمم شتى، مختلفة أسنتهم،

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج ١، ص ١٥١، طبعة المكتبة العصرية.

وأولانهم تجمعهم كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والقبلة البيت الحرام»^(١).

أما الأسلوب الآخر فيمثلته خطبته في مساندة الجزائر، التي يلاحظ على عباراتها غلبة القوة والضخامة، وعلى ألفاظها الصخب والضجيج، وعلى أسلوبها غلبة الإنشائية من نداء، وتعجب، واستفهام، وأمر، ونهي، واستنكار، يتناسب مع نفسه الثائرة، وعاطفته المتأججة بما يحدث للجزائر، ويتلاءم مع موضوعه الذي يهدف من خلاله إلى تعميق الشعور بمعاناة الجزائريين، واستنفار الهمم نحو المشاركة، والتعاون، كقوله منها داعياً إلى اليقظة، والمقاطعة:

«... وإن المال الذي يأخذه منا الغربيون ثمن سيارات البذخ، وأحمر الشفاه، وعطر الإغراء، وهاتيك السموم التي اسمها (الشمبانيا، والويسكي) كل ذلك يتحول ثمن رصاص يستقر في صدور هؤلاء الإخوان، وثمر قتابل تدمر دورهم، وقراهم.

فهل سمعتم بأمة تعين عدوها على نفسها؟

هل سمعتم بأمة تعيش في الحرب مثل عيشها في السلم؟

هل سمعتم بأمة تنام على دوي المدافع؟»^(٢).

فالطنطاوي بهذه العبارات وما تحمله من مشاعر دفاقة، خطيب

(١) دعوة الحق «فصول إسلامية»، ص ١٥.

(٢) هتاف المجد، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

المعركة الذي يحرض المؤمنين على القتال، والنهوض لاستعادة العزة، والكرامة، والمجد ضمن إمكانيات الحاضر بكل طاقة، متوخياً في ذلك العبارات الموحية، والصور المؤثرة التي تهز النفس من الأعماق، وتحملها على الاستجابة لما يريد عن إيمان، واقتناع^(١).

كما تلاحظ موهبة الطنطاوي، وبراعته التي أحسن استغلالها في استمالة جماهيره، خاصة في مقدمات خطبه التي حرص - دائماً - على تضمينها بما يثير الانتباه ويستعطف القلوب، ويتناسب مع موضوعه؛ ليحقق بذلك الإقبال عليه برغبة وانتباه.

كما أن استلهاً الطنطاوي للأسلوب القرآني واضح في تجميل أسلوبه بكل وسائل التأثير التي تسهم في تلبية غرضه، والوصول إلى غايته، ومن هنا كان أسلوبه في خطبه يمزج بروائع التعبيرات البلاغية، والمحسنات البديعية، التي جاءت عفو الخاطر حين اقتضاها المقام، فنبهت الذهن، وثبتت المعنى، وحركت الوجدان؛ إذ إن هذه المحسنات من شأنها أن تحدث تماثلاً صوتياً، وتردداً موسيقياً يكون أساساً من أسس عرض الدعوة، وطريقاً من طرق الإثارة، ووسيلة من وسائل التأثير، ما لم يثقلها الخطيب بالتكلف، والثقل الذي ينفر منها^(٢). كقوله في إحدى مقدمات خطبه رداً على تصنيف الجماهير:

(١) الأدب الإسلامي «الشيخ علي الطنطاوي الخطيب الأديب» / عبد الباسط أحمد، ص ٩٧. العددان (٢٤-٣٥).

(٢) مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، د/ مصطفى عليان، ص ١٥١، ط ١، دار المنارة، جدة سنة ١٩٨٥ م.

«شكراً يا سادتي وعذراً، فإن هذه التحية النبيلة، وهذا التصفيق الذي ينبعث من القلب هزة حب تحرك الأعصاب، وتطلق الأيدي؛ لتستحق خطبة من تلك الخطب العبقريات التي تبدل نفوساً بنفوس، وتحول السامعين من حال إلى حال، وتتلاعب بالأفئدة والقلوب، وتسعر الدم في العروق، وتصب العزم في الأعصاب»^(١).



(١) «في افتتاح أسبوع الجزائر»، هتاف المجد، ص ٢١٥.

المبحث الثاني

أسلوب الطنطاوي في قصصه

الناظر في أسلوب الطنطاوي القصصي يراه ملتزماً فيه بالفصحى في سلامة الأداء، ووضوح الدلالة، وسمو العبارة، ومن هنا نراه في قصصه التاريخية، وإن كان قد استقى مادتها من التاريخ لميزة تجعلها صالحة للبقاء والحياة، إلا أنه قد حول هذه المادة التاريخية إلى عمل فني أمده بالخيال المعتدل، وأعمل فيه فكره وقلمه؛ للربط بين أحداثه، وتنسيقها، وعرضها عرضاً قصصياً جذاباً دون خروج على أصله التاريخي المعروف في محاولة منه لاستلهام العبرة، واكتساب القيم من تراثنا الإسلامي بأصالته وعراقته، وملاءمته لأخلاقنا وطبائعنا.

وقد جمع الطنطاوي ما يمثل هذا المسار في كتابه «قصص من التاريخ»، ويلحق به ما خصّصه للأطفال في سلسلة «حكايات من التاريخ» والتي رأيناها «يحاول فيها التقاط مواقف للمسلمين الأوائل تنبئ عن عظمتهم، ثم يمزجها بخياله، وما يصوغه من أحداث قد تأخذ سمة الواقع فيتوأكب الجانبان: التاريخي، والواقعي في الكشف عن عظمة الأوائل وما يتمتعون به من قيم جديرة بأن تنهض بالواقع المعيش كما في قصة «ابن الحب» وهي إحدى قصص هذه المجموعة،

بل قد نجده. أحياناً. يستخدم الصيغة التراثية كما هي، فتضفي على أسلوبه إشراقاً وبهاءً، وهو يشير إلى ما يستخدمه على هذا النحو بأمانة؛ حيث يذكر مصدره ورقم الصفحة فيه»^(١).

وأما عن قصصه التي استقاها من الواقع لمعالجة قضايا المجتمع، فرأيناه ملتزماً بمساره الإسلامي في معالجة هذا الواقع معالجة إسلامية تحث على الخير، وتجمل الفضيلة، وتحذر من الشر، مقبحة الرذيلة بأسلوب فصيح عفيف يرتفع بالأذواق، ويرتقي بالأفكار.

ولقد كان هذا النهج في أسلوب الطنطاوي القصصي منطلقاً من توجهه الإسلامي الذي يشعره بأن الأديب المسلم مسؤول عن بناء مجتمع نظيف، مجتمع يقوم في أساسه، وجميع مراحل على الإسلام، يأخذ المادة من الحياة، ولكنه يبنّيها بالطريقة السليمة، كما علمه الإسلام؛ فإذا تشابه البناء في زاوية أو جانب مع أي بناء آخر، فلا يكون ذلك لتأثره بالفلسفات الوضعية؛ بل لأن هذه الفلسفات أصابت في هذه النقطة بقصد أو غير قصد»^(٢).

ومن هنا يشير الطنطاوي أنه لم يراع العناصر الفنية للقصة، ولم يهتم بالمذاهب السلوكية فيها، ولم يفكر في ذلك بل جرى فيها على طبعه وأسلوبه، هادفاً الغاية الإسلامية؛ لذلك نراه لم يرتبط بمنهج

(١) الأدب الإسلامي قضية وبناء، د/سعد أبو الرضا، ص ١٠٧، ط ١. عالم المعرفة. جدة ١٩٨٢م.

(٢) في الأدب الإسلامي المعاصر... دراسة وتطبيق، محمد حسن بريغش، ص ٢٢، ط ٢، مكتبة المنار. الأردن، ١٩٨٥م.

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

القصصيين، وإنما الذي عناه هو المنهج الإسلامي في سلامة تناول، وإبراز القيم الجمالية، والخلقية التي تقبّح الشر، وتنقّر منه، وتجمل الخير وتحسنه، دون اهتمام بالشكل القصصي بعد ذلك، آتفق مع العناصر الفنية أم خرج عليها؟ مركزاً اهتمامه على الغاية الإسلامية منها، وحسن طريقته في الوصول إليها، مؤكداً هذا الهدف بقوله في نهاية مجموعته «قصص من الحياة»:

«وكل ما أرجوه أن تثير هذه الفصول في نفس قارئها عاطفة من عواطف الخير، أو فكرة من أفكار الحق، وأسأل الله أن يتجاوز عن ذنوبي»^(١).

بهذا الهدف السامي، والرجاء الحاني، والأسلوب الراقي كتب الطنطاوي قصصه وقدمها إلى قارئه.

فإذا أخذنا أسلوبه في قصة «تاج كسرى» مثلاً لقصصه التاريخي، رأيناه الأسلوب الفصيح الواضح... الذي تحمل عباراته دلالات مجازية، وإيحاءات تملأ النفس إحساساً بعظمة الحدث، واقتناعاً بصدق النبوة، يقول الطنطاوي:

«قال عمر: هلمّ يا سراقه... أتذكر خبر الغار، وسواري كسرى؟

قلت: نعم.

قال: قد أذهب الله بالإسلام مُلك كسرى، فلا كسرى بعد اليوم.

(١) قصص من الحياة، ص ٢٢٢.

هات يديك! فألبسه السوارين، وقال: ارفعهما فقل: الله أكبر،
الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقه بن مالك
أعرابي من بني مُدَلج.

يا سراقه لقد انتصر المهاجران على كسرى وقيصر، وكان لهما
ملك الأرض.

يا سراقه لقد أضاء النور الذي انبثق من بطن مكة إلى الدنيا
جميعاً.

يا سراقه لقد ظفر الغار بالعراق، والشام، وغلبت الصحراء
العالم.

يا سراقه لقد كان ملك كسرى وقيصر كبيراً وقوياً، ولكن الله مع
الذين آمنوا، والله أقوى يا سراقه.. الله أكبر! ^(١).

ويلاحظ أن الطنطاوي في هذه القصة اكتفى في عرضه بما يبرز
الهدف، مع تركيزه فيها على الأحداث الموفية بالغرض المنشود.

فقد بدأت باستعداد سراقه رضي الله عنه لنيل الجائزة، وانتهت بلبسه
سوارى كسرى. متجنباً فيها الإطناب، والتفاصيل، والاستطراد، إلا
بمقدار ما يخدم هدفه في إبراز ما يريد، وقد جاءت التوجيهات عقب
القصة على لسان عمر رضي الله عنه.

(١) «تاج كسرى» قصص من التاريخ، ص ٢٢٢.

وعرضت القصة عرضاً مباشراً بلا تقديم ولا تلخيص كتم فيه الطنطاوي سرّ المفاجأة عن البطل وعنا، حتى كشفه لنا في النهاية بعد تشويق وترقب، مستلهماً في كل ذلك الأسلوب القرآني في عرض قصصه.

ومن هنا فإن هذه المجموعة القصصية «قصص من التاريخ» توضح كيفية توظيف القصة التاريخية؛ لبعث القيم الإسلامية، والإفادة بها في تحقيق أهداف دعوية تُعلي من شأن القيم الإسلامية، وتكشف عن عظمة الشخصيات المتمسكة بها في تحقيق نجاحها، ونيل طموحها، وكأنني به يريد أن يقدم من خلال ذلك القدوة المرجوة، والنموذج الإسلامي المُبتَغى قولاً وفعلاً، في وقت كانت وما تزال تحتاج فيه الأمة إلى هذه القيم، والافتداء بتلك الشخصيات كي تتقدم، وتزدهر، وتحقق ذاتها، حتى يكون حاضرها امتداداً لماضيها^(١).

وإذا أخذنا أسلوب الطنطاوي في قصة «وزارة بعنقود عنب» كمثال لقصصه التي قدّمها للأطفال، نلاحظ أنه ساقها لهدف ديني، وغرض تربوي، يرتقي بفكر الطفل وسلوكه، ويهيئه لاستقبال غده بذخائر ماضيه ومآثره.

ومن هنا عرض القصة مركزاً على الأحداث التي تقي بأهدافه المقصودة، وتحقق غاياته المنشودة، وبالقدر الذي يبلغ العظة من

(١) الأدب الإسلامي «قصص الشيخ علي الطنطاوي بين الدعوة والفن» د/ سعد أبو الرضا، ص ٢٤

عرضها، فلم يعرض ما لا حاجة له كتفاصيل الطفولة، والنشأة مستلهماً في ذلك النهج القرآني في عرض قصصه بما يتناسب مع غرضه^(١).
وقد جاءت توجيهات الطنطاوي في ثنايا القصة ونصائحها ممتزجة بسياقها.

من ذلك قوله حكاية عن ابن هبيرة:

«فقلت لنفسي: أدخل فأصلي فيه ركعتين، وأسأل الخالق أن يغنيني عن المخلوقين. فدخلت فصليت، ودعوت الله وكل من دعا الله صادقاً في التوجه واثقاً من الإجابة، لا بد أن يُستجاب دعاؤه، فيعطيه الله ما يطلب، أو يعوضه عنه خيراً منه»^(٢).

وقد بدأ في هذه القصة بذكر عاقبتها ومغزاها، ثم بدأ في عرض القصة بعد ذلك من أولها، وتفصيل خطواتها التي وصلت لهذه النهاية العجيبة، وقد تشوقت النفس إليها.

أما في نهاية قصة «التاجر والقائد» فقد أحالها إلى تمثيلية؛ إذ نراه بدأ بما ينبّه على بدء العرض، ثم ترك القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها.

وقد استخدم الطنطاوي طريقة السرد الذاتي الذي يكون بصيغة

(١) دراسات في البيان القرآني من الوجهة الأدبية، د/عبد القادر رزق الطويل، ص ١٧٦، طبعة دار

البيان القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٢) «وزارة بعنقود عنب»، ص ١٤.

المتكلم؛ حيث أجرى القصة على لسان إحدى شخصياتها، ومن هنا كان من السهل تقرير رأي، أو فكرة في سياق القص دون هتك للنسيج القصصي^(١).

ويلاحظ استخدام الطنطاوي للفصحى كونها أداة قريبة من لغة الشخصيات التاريخية التي تتحدث إلينا، أو يتحدث الكاتب على لسانها استخداماً قريباً يتوافق مع مدارك الطفل ومستواه اللغوي، والثقافي، وإن أورد الكاتب بعض الكلمات التي تصعب على إدراك الطفل، فيقصد إثارة ذهنه؛ للتعرف عليها واكتشاف معناها؛ ليضيف إلى رصيده اللغوي ما يرتقي بمستواه الثقافي، والمعرفي.

مثل كلمة «مدنف»^(٢)، «وقافلين»^(٣)، و«غائر»^(٤)، و«شاخص»^(٥)، و«تكأ»^(٦).

ونراه يهتم بوضع عنوان عام لقصصه، يتوخى فيه الجاذبية والتشويق، والدلالة الواضحة على ما تحتويه من أحداث، فاختياره لهذا

(١) القصة القصيرة دراسة ومختارات، د/ الطاهر أحمد مكي، ص ٧٩.

(٢) الدنف: المرض الملازم المخامر، ومدنف: براه المرض حتى أشرف على الموت. (لسان العرب، لابن منظور، ج ٩ ص ١٠٧).

(٣) القفول: الرجوع من السفر (السابق ج ١١، ص ٥٦٠).

(٤) غار الماء غوراً: ذهب في الأرض وسفل فيها (لسان العرب، ج ٥، ص ٣٦).

(٥) شاخص الطرف: طامحه، وشخص به: أتى إليه أمر يقلقه (السابق ج ٧، ص ٤٦).

(٦) نكأ: نكأ القرحة نكأً: قشرها قبل أن تبرأ فنديت، وأنكأته: أي أخذته. (لسان العرب ج ١، ص ١٧٣، ١٧٤).

العنوان «وزارة بعنقود عنب» يثير كثيراً من الدهشة والتساؤل، فيكون ذلك مصدراً لجذب القراء والإقبال عليها ومعرفة خبرها.

ويكثر الاعتماد على الصورة الأدبية، والألفاظ المثيرة للمعاني الحسية؛ وذلك لصعوبة إدراك الطفل للمعاني المجازية؛ لذا كان يتحاشاها، وإن وقع له منه شيء فسّره بالهامش^(١).

كما اهتم الطنطاوي بضبط الكلمات بالشكل؛ ليعود الطفل من خلال ذلك على النطق الصحيح الذي يقوم لسانه، ويجنبه الخطأ، كما لم يجنح كاتبنا إلى الخيال في قصته إلى الحد الذي يخرج بها عن الإقتناع، أو الشك فيها، بل نراه حريصاً على تأكيد صدقها، وواقعيتها لغة، وشخصيات، وأحداثاً، وزماناً، ومكاناً.

وبصفة عامة تُسيطر على القصة الروح الإسلامية التي تبدو في إرسال هذه القيم السامية من خلال شخصيات مسلمة مرّت بأحداث وابتلاءات، فكانت تتعامل معها تعاملًا إسلامياً تتصرف فيه للدين، وتقاوم الضعف والهوى، واثقة بعطاء الله وعونه لمن أطاعه، وأخلص له.

ولا شك أن القصة أشادت (بابن هبيرة) كشخصية تاريخية كان لها وجود في الحياة، وجعلت منه إنساناً يستحق الإعجاب والتقدير. وهذا يدفع الطفل من ثم إلى التطلع للتعرف عليه، فيكون التعريف

(١) «وزارة بعنقود عنب»، ص ٢٥.

(بابن هبيرة) بعد انتهاء القصة أوقع في النفس، وأثبت؛ لوقوعه منها موقع الجواب بعد البحث والطلب.

وقد أثبت كاتبنا التعريف (بابن هبيرة) في نهاية القصة؛ ليضيف إلى ما سبق تعريف النشء بعلماء المسلمين، ودورهم في بناء حضارته الإسلامية؛ وليكون ذلك أثبت لواقعية القصة وصدقها.

ومن خلال كل هذا جاءت القصة في ثوب أدبي رقيق، يمجج جمالاً في الأسلوب والتناول، وجلالاً في البناء والمضمون، مما يستولي على لبّ الطفل، ويقوده إلى الرغبة في سماعها وقراءتها، بل وإعادة سردها على أهله وأصدقائه، تاركة الأثر النفسي والتربوي الذي يقصده كاتبنا، ويهدف إليه. وكأنني بالطنطاوي يهدف من خلال هذه المجموعة «حكايات من التاريخ» التي لم تزد على سبع قصص، يريد أن يقدم للكتاب. الذين أغرقوا أنفسهم في عالم الجن والعفاريت، أو الوهم والإثارة. النموذج الأمثل لقصص الأطفال، والتي تهدف إلى غرس القيم، وإثراء المعرفة، وتهذيب السلوك، وتنمية الملكات بأسلوب شيق عذب، وبمهارة فنية جذابة تحقق غرضها المنشود.

وإذا أخذنا أسلوبه في قصة «بنات العرب في إسرائيل» مثلاً لقصصه الاجتماعي، نراه استخدم. أيضاً. الفصحى في قرب وسلاسة، وانتقاء للفظ المعبر عن المعنى المراد. وألفاظه عفيفة، وإن جاء فيها ما يثير الخيال للتعبير عن مواقف حرجة، ففي عبارات قليلة، وحدود ضيقة، لا تجرح الحياء. كقوله:

«وجاء النادل (الكارسون) يقدّم إليّ فتاة جرفتها ببصري في لمحة واحدة، وجردتها بخيالي من ثيابها في ثانية، فرأيتها عارية أمامي، وجمعت بي الغريزة، حتى لا أقدر على الصبر عن عناقها دقيقة، وعن ضمّها إليّ، وعن أن أشدّ يدي عليها، ثم أكلها عضاً ولم تكن فتاة، ولكنها فتنة في ثوب امرأة»^(١).

فالطنطاوي لم يقصد بهذا المشهد إثارة الغريزة، أو تحريك الشهوة، وإلا لما اكتفى بهذه العبارات الموحية، وإنما كان مقصده من ذلك أن يكشف للمرأة عن طبيعة الرجل، ويفضح ما في نفسه تجاهها، لتتوخى الحذر منه، وتعرف تربصه بها.

ومع نبل هذا الهدف الذي أعلنه في بعض مقالاته وحوّله هنا إلى «معادل موضوعي»^(٢) من خلال هذه الشخصية، نراه لا يسوغ أن تقع هذه القصة وما شابهها في أيدي الشباب والشابات؛ خوفاً من أن يكون قد قصد بها الإصلاح فأفسد^(٣).

وقد اهتم الطنطاوي في قصصه تلك بالأسلوب التصويري،

(١) «بنات العرب في إسرائيل»، قصص من الحياة، ص ١٩.

(٢) المعادل الموضوعي: يعني تحويل المشاعر المجردة إلى أشياء واقعية كما يقول إليوت: إن الطريقة الوحيدة للتعبير عن المشاعر فنياً، هي إيجاد موقف أو سلسلة من الأحداث والشخصيات التي تعد (المقابل) المادي لتلك العاطفة أو الموضوع. (المصطلحات الأدبية الحديثة، د. محمد عناني، ص ٥٤، ط ٢، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٧م).

(٣) «بنات العرب في إسرائيل»، قصص من الحياة، ص ٨٠٧.

والإيحائي الذي يبرز ملامح الشخصيات، وأبعاد الأحداث، ودلالات الألفاظ، وكأنها لوحات تنطق بالحركة والحس، والحياة.

ويلاحظ أن الطنطاوي قد عرض قصته - أيضاً - بالقدر الذي وقى بغرضه منها، ولم يعرض من التفاصيل إلا بالقدر الذي يعمق الإحساس بمأساة هؤلاء الفتيات، ويبين قسوة اليهود، وتخاذل المسلمين، مستعيناً في ذلك بأسلوب كفل له سهولة التعبير عن كثير من خواطره وأفكاره، وهو ما يطلق عليه «أسلوب السرد الذاتي» الذي يكون بصيغة المتكلم على لسان إحدى شخصياته؛ لتأتي التوجيهات والنصائح في أثناء سياق القصة على لسانه.

وقد أخفى الطنطاوي سرّ هذه الفتاة عنا وعن البطل، فلما كشفه، كان وراءه سر آخر أعجب منه بدأت الفتاة في كشفه شيئاً فشيئاً، بعبارات مثيرة، وأسلوب مؤثر.

ولم يُسمّ الطنطاوي شخصياته؛ لأنه أراد أن يجعل منها قصة عامة تصدق على كثيرين، وليست قصة فتاة بعينها، وهذا من شأنه تعظيم الفجعة، وتضخيم الأثر.

وهذا مثال لأسلوب الطنطاوي من تلك المجموعة القصصية التي يؤكد بسيره فيها سلامة اتجاهه الإسلامي في قصصه، حتى إنه لم تكن تعنيه العناصر القصصية بقدر ما تعنيه القيمة الأخلاقية، والرسالة الإنسانية الإسلامية التي يوجهها من خلال ملامح الشخصية، وما تتعرّض له من أحداث؛ ليكشف بهما عن أغوار النفس الإنسانية

وهي تواجه محن الحياة، ومتغيراتها بضعفها وعجزها، أو بطغيانها وإجرامها؛ لِيُثير بذلك عواطف المتلقي تجاه هذه النوعيات من البشر، إما بالعطف والرفق، وإما بالاستنكار والكراهية، كما في هذه القصة وقصة «طبق الأصل» و«أستاذ» و«العجوزان»^(١).

وإذا كان الطنطاوي بحماسة، وبيانه العذب، وتصويره المشوق، يُحيل القصة. أحياناً. إلى خطبة، تكشف عما في الدنيا من رذائل وفساد في مقابل ما عند الله من خير وثواب، وتعكس حسه اليقظ، ومشاعره الدفافة بالوعظ والإرشاد، كما في قصته «شيخ في مرقص» و«قصة أب» و«الباب الذي لا يُغلق في وجه سائل»^(٢).

وقد تبين في هذه القصص انفعال الطنطاوي بأسلوب القرآن الكريم، وتأثره به في عرض قصصه من خلال مزجه الحكاية المشوقة بالعظة المؤثرة، ومراعاته جمال التصوير مع سمو التعبير، مما جعله بحق رائداً من رواد القصة الإسلامية في العصر الحديث.



(١) الأدب الإسلامي «قصص الشيخ علي الطنطاوي بين الدعوة والفن»، د/ سعد أبو الرضا، ص ٢٤،

٢٥، العددان (٢٤-٢٥).

(٢) السابق، ص ٢٤، ٢٥.

المبحث الثالث

أسلوب الطنطاوي في تراجمه

إذا كان للقصة الأدبية من التأثير ما قد تمتلك به القلوب، فإن لتراجم الأدبية الإسلامية الجادة من التأثير ما يمكنه تبديل النفوس وتغيير الفكر والسلوك؛ حيث إنها أشد للنفس إقناعاً، وأوثق بها إيماناً؛ لأنها فوق كونها قصص حياة، كان لها وجود في الواقع الملموس وهذا ما قد تفتقر إليه القصة الأدبية، التي غالباً ما تعتمد على الوهم والخيال، والذي يضعف من تأثيرها في نفوس متلقيها، ركوناً إلى أنها قد تكون من صنع الكاتب، أو خيال الأديب؛ ولذلك أدرك الطنطاوي ضرورة خوض هذا الفن، وتوظيفه توظيفاً إسلامياً، فذهب يستمد قوته من الواقع التاريخي، ويعتمد فيه على الطاقة الإبداعية في التقاط الصور الحية الهادفة من حياة رجالنا الأوائل؛ ليسهم بذلك في إحياء الشعور الديني، وتنمية الفكر الإسلامي بإعادة الثقة لشبابنا والتماس القدوة من رجالنا.

أسلوبه في ترجمته الشخصية:

والطنطاوي في ذكرياته ملتزم بهذا التوجه الإسلامي الذي صان أسلوبه فيه من الإسفاف والابتذال، وعصمه من العامية والخروج على القواعد اللغوية.

كما نلاحظ في أسلوبه هذا التوجه الإسلامي من خلال صدقه وصراحته في تناول ذكرياته، فلم يموّه الحقائق ولم يُزيّف الوقائع، وقد علمنا أن من أهم ما يميز الطنطاوي، صدقه مع نفسه، وقد تعهد بصدقه مع قارئه في ذكرياته فقال:

«ولكن لكم علي عهد أنا موف به - إن شاء الله - هو ألا أقول إلا الحق وألا أذكر مما صنعت إلا ما يشهد كل من عاصره أنني صنعته»^(١).

وقد وقّى الطنطاوي بعهد فبدت صراحته وصدقه في عرض الحقائق وتصوير الأحداث دون موارد أو تلفيق، مما جعل من ذكرياته نموذجاً رائعاً للسيرة الذاتية الإسلامية في عصرنا الحديث.

وقد أكد صدق هذه الذكريات أمور من أهمها:

- أن الصدق كان صفة ملازمة للطنطاوي؛ حيث توافر له من الشجاعة والجرأة، وحسن الخلق ما ينأى به عن الكذب.
- أنها كانت تنشر في جريدة سيارة، مما يفتح مجالاً أوسع لجمهور القراء إلى المراجعة والتصويب؛ إذا حاد عن الصواب أو خانته الذاكرة.
- توقّفه - أحياناً - فيها عن مواصلة الأحداث، والوقوف على ما يتذكره منها خوفاً من مجانية الحقيقة دون أن يلجأ إلى خياله الوثاب في سد الفجوات، أو اصطناع الأحداث.

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٢.

ومن هنا فقد بدت مظاهر الصراحة والصدق في ثنايا ذكرياته في أعلى درجاتها؛ حيث لم ينسب لنفسه بطولة زائفة، أو يخف زلة مؤسفة باعتبار أنه بشر يخطئ ويصيب، ومن هنا رأيناه يصرح لقارئه بمواقف له قد يستنكف من هو في مكانته عن ذكرها.

من ذلك تصويره لموقف أهل دمشق من زيارة «بلفور» سنة ١٩٢٥ م إليهم، وموقفه هو من ذلك؛ حيث يقول:

«ما كان جمهور الناس يعرف بلفور الوزير البريطاني، ولا وعده الذي تحمل دولته وزره، وما كانت قضية فلسطين قد ظهرت وعُرفت وصارت القضية الكبرى. الذي عرف قصة هذا الوعد الآثم هم طلاب «مكتب عنبر» لقد تساءلوا من الذي أعطى هذا الرجل حق التصرف بفلسطين؟ كيف سوغ لهذا شرفه إن كان له شرف؟ كيف برره له عقله، وله -ولا شك- عقل؟

وغضب الطلاب، وزاد غضبهم أن هذا الرجل سيزور الجامع الأموي.. كلا، هذا لن يكون، وخرجوا بالمظاهرة، وانشطرت المظاهرة شطرين، أما أحدهما فذهب إلى الأموي فأغلق أبوابه كلها، وأما الآخر فتوجه إلى الرجل في فندق فيكتوريا، الذي كان مقابل المصرف على الضفة الأخرى من بردى.. لا تسألوني أين كنت في هذا اليوم، وأين أنا من أحداثه؟ إن جوابي ليس في مصلحتي، إنني لم أكن في العير ولا في النفير! لا في «القافلة» ولا مع المقاتلة.

لماذا لأنني «صدقوني» لم أكن أدري بكل شيء مما حدث! ومن أين أدري وأنا أعيش بين بيتي ومدرستي، ما لي صديق أسأله، ولا عندي صحيفة أقرؤها، ولا كان في الدنيا إذاعة أسمعها!.

لذلك ذهبت إلى المدرسة كما كنت أذهب كل يوم، فلم أجد فيها أحداً ففجيت، وقرع جرس الدخول إلى الصف فدخلت وكنت وحدي، وجاء المدرس لأنه لم يكن يستطيع ألا يجيء، ونظر إلي ووجهه ينطق بالازدراء لي! أنا وعدت في مقدمة هذه الذكريات أن أقول الحق، أقوله بلا تزيد إن كان لي، وأقوله بلا تردد إن كان عليّ، لقد كان الحق مع المدرس أن ازدراني! كيف لا يزدري طالبا يخالف إخوانه كلهم ويتجاهل موقف أهل بلده جميعاً؟

من يصدق أنني لم أدر بشيء؟ من يصدق؟

وخرجت أجر رجلي فوجدت باب المدرسة مفتوحاً فخرجت وكانت سوق الحميدية مغلقة ما فيها أحد، ووصلت إلى شارع النصر - شارع جمال باشا الذي لم يكن في دمشق شارع غيره - فصرت في وسط اللج.

بحر من الناس تلتطم أمواجه، يهجمون، يرحمون الجنود بالحجارة، ولقد رأيت رجلاً أمسك بحجر ربما زاد وزنه على كيل، فقذف به من فوق الشجرات الكبار التي كانت في الشارع.. فإذا كّر عليهم الجند فرّوا، فإذا ولّوا رجعوا، فدخلت بين الناس عليّ أعتذر أمام نفسي بأنني شاركت الناس فيما هم فيه^(١).

فهذه لوحة ناطقة من الماضي، عكست عواطف الناس عندما كانت بهم حياة، وأظهرت مشاعرهم الساخطة في مواجهة الباطل،

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ج ١، ص ١٦٩، ١٧٠.

كما عبرت عن صدق وصراحة الطنطاوي في عرض موقفه، كما أنها تمثل صورة من أسلوب الطنطاوي الحركي الذي يعنى نقله الحدث في صورة حية متحركة متمثلة للأذهان بأبعادها الحركية، والشكلية^(١).

فصورة طلاب مكتب عنبر، وهم يتساءلون تكاد تتراءى لنا بملامحها القريبة والبعيدة، حيث الدهشة على وجوههم، والغضب مملأ نفوسهم، والتصميم والعزم على منع الزيارة تنطق به أسنتهم.

كما تتراءى لنا صورة تظاهريهم، والتحامهم بالناس المحتشدين، ثم انقسام هذا الحشد وتحركه في اتجاهين لمواجهة الجنود ورجلهم بوابل من الحجارة، بعد إغلاق المسجد الأموي، كما نشعر باستحياء الطنطاوي في الإعلان عن موقفه يومئذ من خلال تمهيده بأسلوب ذكي، وحوار وجداني قريب، خفف به قبول هذا الموقف، وهياناً لاستقباله، وهذا من إلهام طبعه، وحسه اليقظ في تعامله بأسلوبه مع النفس.

ويبرز توجه الطنطاوي الإسلامي في أسلوب ذكرياته من خلال انطلاقه فيها من منطلق إسلامي دعوي؛ فقد كان يتلمس الأسلوب القرآني في أدائه البياني باستغلال المواقف والمناسبات التي يوجه من خلالها إلى القيم، وينبه إلى ما فيها من عبر بأسلوب عذب، وفكر لمارح يلتقط العلاقات البعيدة ويربط بينها؛ ليصل إلى مواطن التأثير التي تنبه الحس، وتهز النفس.

(١) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د/ أحمد بسام ساعي، ص ١٣١، ط ١، دار المنارة، جدة.

فهو حين ينقل إلينا إحساسه بالصحراء، ومخاوفه في رحلته فيها بقوله:

«... حتى الطبيعة من حولنا لا أحس منها إلا ما يبعث الخوف وينفى الأمان: تلال الرمل وصخور الجبال وأرض تشتعل رمضاؤها، وتنفض لها سماؤها، وسراب رأيته أول مرة، وحسبته ماء فهو كالشهرة، والمجد، والجاه، يتمناه المحروم ولا يشعر بالمتعة بها من أوتيتها»^(١).

فهو لا ينسى أن ينقل إلينا ما توحيه هذه الصورة في نفسه من أن الشهرة والمجد والجاه للمحروم، كسراب الماء في الصحراء للظمآن، ما إن يصل إليه حتى لا يجده شيئاً.

ويدعو الطنطاوي إلى استخدام هذا الأسلوب ليس في الكتابة فحسب، بل في معالجة كل مظاهر الحياة: من ربط العلم بالحياة، وربط الحياة بالدين، على نحو ما كان من حكمة الله تعالى البالغة، في تنزيله لقرآنه الكريم مواكباً لأحداث الحياة وهادياً لها. يقول:

«فياليت مدرسي الفقه: إن علّموا الطلاب أحكام الحج عرضوا لهم صور المشاعر، وأماكن العبادة، ليصلوا علوم الدين بحياة الناس في هذه الدنيا.

ولولا أنني أبعد عن الموضوع، لعرضت لشيء أعلم أنه ليس هنا مكانه، ولكنها ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين!».

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٨٦/٢.

هي أن دروس مدرسي الدين، وخطب خطباء المساجد ومواعظ الوعاظ، لا تبلغ من نفوس الناس غالباً مبلغها المرجولها؛ لأنها تأتي بعيدة عن الحياة، منفصلة عنها، فكأنها الآثار تقتنى للإعجاب بها، ولكنها لا تستعمل للاستفادة منها: تعرض في الرائي البرامج وهي شتى، ولعل منها ما يخالف الإسلام، وأنا لا أقصر الكلام على المملكة بل أعمم، ثم تختتم بتلاوة القرآن كما بدأت بتلاوة القرآن، فتأتي التلاوة منفصلة عما كان قبلها وعما كان بعدها.

وننسى أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، كما نزلت الكتب من قبله، وكما طلب الكفار، بل نزل منجماً، مرتبطاً بالحياة، تكون قصة أسرى بدر، فينزل فيها قرآن، وتكون مسألة الإفك، فينزل فيها قرآن، ينزل دائماً - مقترناً بالأحداث؛ لنفهمه - دائماً - مرتبطاً بالحياة ولنربطه بها^(١).

على أن سر الحياة في هذه الذكريات يرجع إلى أسلوبها المميز؛ إذ إن الطنطاوي صاحب شخصية إسلامية مميزة بعلامتها الإنسانية والفنية، والأسلوبية، والثقافية، والتي منحتنا الكثير من المعارف الإنسانية والأدبية المصطبغة بالصبغة الإسلامية، والتي تلفت النظر، وتحرك المشاعر، وتقود الوجدان، والعواطف؛ لمعرفة قضايا الكون، والحياة وفق تصور الإسلام.

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٩٦ / ٨.

من ذلك ما قدّمه من مساجلات ونوادر كثيرة تفيد القارئ بما توحيه من دلالات أخلاقية فاضلة، وتمتعه بما ترسمه من مفارقات وطرائف تثير الإعجاب، وتحمل على السرور والابتسام. وفي سبيل ذلك لم يكتف الطنطاوي بنقل مساجلاته وطرائفه، وهي كثيرة، بل أضاف إليها مما سمعه من غيره أو قرأه؛ ليكون من ذلك زاداً للقارئ يفيد على طريق الحياة. قال الطنطاوي:

«... وعندي في هذا الباب أخبار كثيرة أروي الآن واحداً منها، حدثني به في مصر الأستاذ / أحمد حسن الزيات صاحب (الرسالة) عن شيخ سماه ونسيت أنا اسمه، قال: كان هذا الشيخ مدرساً لا يعرف من الدنيا إلا الجامع الأزهر الذي يدرّس فيه قبل أن تدخل عليه تاء التأنيث، فيصير جامعة، والبيت القريب منه الذي يسكنه، والطريق بينهما.. فلما طالت عليه المدة، وعلت به السن، واعتلت منه الصحة احتاج إلى الراحة، فألزمه الطبيب بها، وأشار عليه أن يبتعد عن جو العمل ومكانه، وأن ينشد الهدوء في البساتين والرياض، وعلى شط النيل، فخرج، فاستوقف عربية، ولم تكن يومئذ السيارات، وقال له: خذني يا ولدي إلى مكان جميل أتفرج فيه وأستريح.

وكان صاحب العربية «العربجي» خبيثاً، فأخذه إلى طرف الأزبكية؛ حيث كانت بيوت المومسات، وقال: هنا!

قال: لقد قرب المغرب فأين أصلي؟! خذني أولاً إلى المسجد.

قال: هذا هو المسجد!.

وكان الباب مفتوحاً، وصاحبة الدار قاعدة على الحال التي يكون عليها مثلها. فلما رآها غض بصره عنها، ورأى كرسيّاً، فقعد عليه ينتظر الأذان، وهي تنظر إليه، لا تدري ما أدخله عليها، وليس من رواد منزلها، ولا تجرؤ أن تسأله، منعته بقية حياء قد يوجد أمام أهل الصلاح حتى عند المومسات، وهو يسبح وينظر في ساعته حتى سمع أذان المغرب من بعيد، فقال لها: أين المؤذن؟ لماذا لا يؤذن وقد دخل الوقت؟ هل أنت بنته؟ فسكتت. فانتظر قليلاً، ثم قال: يا بنتي.. المغرب غريب، لا يجوز تأخيرهم! وما أرى هنا أحداً، فإن كنت متوضئة فصلي ورائي تكن جماعة!

وأذن، وأراد أن يقيم، وهو لا يلتفت إليها، فلما لم يحس منها حركة! قال: ما لك ألسن على وضوء؟ فاستيقظ إيمانها دفعة واحدة، ونسيت ما هي فيه، وعادت إلى أيامها الخوالي، أيام كانت فتاة عفيفة طاهرة، بعيدة عن الإثم، وراحت تبكي وتنشج، ثم ألقت بنفسها على قدميه!...

فذهش ولم يدر كيف يواسيها وهو لا يريد أن ينظر إليها، أو أن يمسه.. وقصّت عليه قصتها، ورأى من ندمها وصحة توبتها ما أيقن معه صدقها فيها، فقال: اسمعي يا بنتي ما يقول رب العالمين: **أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١) جميعاً يا ابنتي!

إن باب التوبة مفتوح لكل عاص وهو واسع يدخلون منه، فيتسع لهم، مهما ثقل حملهم من الآثام، حتى الكفر، فمن كفر بعد إيمانه ثم تاب قبل أن تأتيه ساعة الاحتضار، وكان صادقاً في توبته، وجدّد إسلامه فإن الله يقبله. الله يا بنتي أكرم الأكرمين، فهل سمعت بكريم يغلق بابه في وجه من يقصده، ويلجأ إليه، معتمداً عليه؟

قومي اغتسلي والبسي الثوب الساتر، اغسلي جلدك بالماء، وقلبك بالتوبة والندم، وأقبلني على الله، وأنا منتظرُك هنا، لا تبطئي لئلا تقوتنا صلاة المغرب.

ف فعلت ما قال، وخرجت إليه بثوب جديد وقلب جديد، ووقفت خلفه، وصلت صلاة ذاقت حلاوتها ونقّت الصلاة قلبها!.

فلما انقضت الصلاة قال لها: هلمّي اذهبي معي، وحاولي أن تقطعي كل رابطة تربطك بهذا المكان ومن فيه، وأن تمحي من ذاكرتك كل أثر لهذه المدة التي قضيتها فيه، وداومي على استغفار الله والإكثار من الصالحات، فليس الزنا بأكبر من الكفر، و«هند» التي كانت كافرة، وكانت عدواً لرسول الله، وحاولت أن تأكل كبِد عمه حمزة، لمّا صدقت التوبة صارت من صالحات المؤمنات، وصرنا نقول: رضي الله عنها!.

وأخذها إلى دار فيها نسوة ديّئات، ثم زوّجها ببعض من رضي الزواج بها من صالحى المسلمين، وأوصاه بها خيراً^(١).

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١ / ١٩٤، ١٩٦.

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

فمثل هذه (النادرة الطريفة)^(١) تمتع القارئ وتفيده في آن واحد؛ حيث يتعرّف من خلالها على أهمية التأثير بالحال قبل المقال، ويتبين له الخير والطهر الكامن في النفوس المنحرفة عن الفطرة الإسلامية، ومدى شقائها بهذا الانحراف، والتي متى وجدت من يعيد إليها طهرها، ويحسن رسم الطريق لها، الذي يردّها إلى فطرتها، ويدلّها على سعادتها عادت إليه من قريب.

ومن هنا يُلاحظ على هذه الذكريات. على الرغم من طولها. أنها جاءت عذبة سلسلة، صافية الأسلوب مما يعكسه من خبيث الألفاظ، وثقل الكلمات، وزيف العبارات، بعيدة عن التكلف، والتعسف، ومتضمنة استطرادات مفيدة، وطرائف حلوة، وخواطر عميقة، وسخرية مهذبة، كُتبت عن عقيدة سليمة، وعاطفة صادقة قوية، مما يؤدي. حقيقة. إلى سريان النفس معها في إمتاع، وخفة، منتقلة من موضوع إلى موضوع حتى النهاية دون ملل، أو فتور.

أسلوب الطنطاوي في تراجمه الذاتية الغيرية:

أسلوب الطنطاوي في تراجمه الغيرية مصطبغ بالصبغة الإسلامية الخالصة؛ حيث كان حريصاً فيها على الأمانة والدقة، وجمال الصياغة، وحسن الترتيب.

(١) النادرة، والملحة، والطرفة: سرد قصير لحادثة طريفة شيقة، أو متعلقة بشخص من الأشخاص

المعروفين (معجم مصطلحات الأدب. مجدي وهبة ص١٧، طبعة مكتبة لبنان).

ففي كتابيه عن «أبي بكر وعمر» ﷺ نراه قام بجهد كبير؛ حيث تناول حياتهما - في مجلدين كبيرين - من البداية إلى النهاية فكانت (ترجمة كلية)، قام بجمع الروايات التي تتعلق بهما وتحقيقها، وتنقيحها من الضعيف والزائف، وهذب أسلوبها ووضّح غامضها، وألّف بينها تحت عناوين داخلية تبرز أبعاد الشخصية، وتوضّح معالمها الحقيقية.

وهذا جهد كبير وعمل محمود؛ إذ هو أساس لكل دراسة تعقبه؛ لأن الكاتب نزه كتابه عن أن يكون بحثاً تحليلياً يعتريه الصواب والخطأ، وإنما جعل منه مرجعاً علمياً، وسجلاً تاريخياً^(١).

وللطنطاوي أسلوب آخر في (تراجمه الجانبية) وهي التي تناول فيها جوانب مميزة من حياة شخصياته؛ حيث كان يجمع أقوال المؤرخين حول شخصيته التي يترجم لها، ثم يحقّقها، ثم يختار منها مشهداً بارزاً يجعله مدخلاً إلى الكتابة عنها، ومحوراً لترجمته التي يضيف عليها من عواطفه وأحاسيسه ما يبعث فيها الحياة، فيكون ما يكتبه وسطاً بين القصة الأدبية والسيرة التاريخية، وعلى ذلك جاءت تراجمه التي جمعها في كتابه (رجال من التاريخ) وكذا ما تناوله في (سلسلة أعلام التاريخ) و(قصة حياة عمر) حيث بدت في بناء تحليلي، روائي، متماسك، خلع عليها الطنطاوي من عواطفه وانفعالاته ما عكس شاعريته، وأظهر أحاسيسه في بعث التاريخ وبعث الحياة في أحداثه، حتى ظهرت الأحداث وكأنها ماثلة للعيان واضحة في الأذهان.

(١) منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية، علي خالد السداني ص ١٥٩، المكتبة العصرية،

كما تبدو إسلامية أسلوب الطنطاوي في تراجمه من خلال عفة ألفاظه وقربها، ووضوح معانيه وسموها، فقد تميزت ألفاظ هذه التراجم وتراكيبها: بأنها قريبة عفيفة، سلسلة الأداء، بارعة التراكيب، بعيدة عما يفسد الأسلوب من فجاجة اللفظ، أو ثقله، أو غرابته، وما يعيب العبارة من تعقيد أو تنافر أو غموض؛ حيث إن الطنطاوي متأثر في أسلوبه بالأداء القرآني في حرصه على سلامة بيانه، ووضوح كلامه لكل الطبقات ولمختلف المستويات مع بلوغه سنام البيان، وانتقائه من الصور ما يحيي به الكلام؛ لتتحرك النفوس الساكنة، وتحيا القلوب الميتة بما تراه من قيم ومثل، وعظات وعبر.

عرض الطنطاوي أول مواقف عمر رضي الله عنه بعد توليته الخلافة بأسلوبه العذب، وكلماته المضيئة، فقال معقبا عليه:

«لم يكد عمر ينفض يده من تراب أبي بكر رضي الله عنه حتى قام في مكانه، فألقى خطبة العرش، وعرض فيها سياسته ومنهاجه، لا كما يعرضها ملوك اليوم، ورؤساء الزمان، ألفاظاً معسولة، تحمل أحلاماً بعيداً تحقيقها، وأمانى متعسراً بلوغها، يخدعون بها الناس عن رضاهم، وينالون بها إعجابهم، ثم لا ينفذون شيئاً منها! بل عرض منهاجه ونفذه، وزاد عليه، وكان فيه نادرة الزمان، وأعجوبة الدهر.

أعلن أنه لم يبلغ ذو حق أن يطاع في معصية الله، فلا يطيعونه إلا في أمر جائز، فهو رئيس جمهورية دستوري، مقيد بالقرآن، وقائم على تنفيذها، وليس بالملك المطلق الذي يمنح أوامر صفة التشريع، ولا هو

بالحاكم الجبار الذي يتخذ الناس عبيداً له وخولاً. وأعلن حقه من بيت المال، بأنه ينزل نفسه منزلة ولي اليتيم، إن استغنى كف، وإن احتاج أكل بالمعروف، فلا يتخذ الخلافة مغنماً ولا سلباً للعلو على الناس، والاستكبار في الأرض، ولا يملك حق التصرف بخزينة الدولة كتصرف مالك المال بماله، وسار في خلافته كلها على هذا الأسلوب الشعبي، واستطاع بعقله الكبير أن يسيّر وحده هذه المملكة الواسعة، على شكل من العدالة لم ير التاريخ مثله إلى اليوم!.

كان يعلم الناس بحقوقهم، ويبصرهم بها، ويحثهم على مراقبة الخليفة وولاته، حتى بلغ في ذلك حد التصريح بأن على الناس أن يولوا رجلاً منهم فإن استقام اتبعوه، وإن جنف قتلوه.

فيعترض عليه طلحة، ويقول له: وما عليك إذا قلت: وإن تعوج عزلوه؟

قال عمر رضي الله عنه: لا، القتل أنكل لمن بعده!.

ألقى عليهم هذا الدرس، ثم امتحنهم به، فسألهم وهو على المنبر، ما هم فاعلون إذا رأوا في الخليفة اعوجاجاً، فلما رأهم قد حفظوا الدرس، وعرفوا ما لهم من حق عليه، اطمأن وسراً!.

هذا الموقف العظيم ملاً على الطنطاوي مشاعره، وتحركت به نفسه المتألمة من سلوك الحكام الذين ابتعدوا عن النهج القويم فراح يقول:

«أفرأيت ملكاً من الملوك أو رئيساً يقف من شعبه موقف الزعيم الوطني المتطرف، والمعارض الخطر الذي يحث الناس على البطش بالحكومة وتقويمها بالسيوف إذا رأوا فيها اعوجاجاً، وأنسوا منها ميلاً؟»^(١).

وكأنني بالطنطاوي بيعث برسالة. بهذا الأسلوب الرائع. إلى الشعوب الإسلامية؛ ليثبت فيهم. من خلالها. هذه التربية السياسية الإسلامية الحقة التي كان يربّيها عمر رضي الله عنه لرعيته حين يعرفهم بحقوقهم، ويحدد سياسته معهم، ويأمرهم بمحاسبته ومراقبته، بل والتخلص منه إن حاد عن الإسلام.

ويلاحظ إسلامية أسلوب الطنطاوي في تراجمه من خلال تأثره الواضح بالأسلوب القرآني، والبيان النبوي، الذي أضفى على أسلوبه قوة وجمالاً.

من ذلك قوله معلقاً على جرأة القاضي (منذر بن سعيد البلوطي)^(٢) على الخليفة (عبد الرحمن الناصر)^(٣) الذي انتقاد له وهابه؛ للحق الذي التزمه، وصدر عنه:

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص ٢٢-٢٥، ط ١، دار المنارة، جدة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
(٢) منذر بن سعيد بن عبد الله القرطبي، أبو الحكم البلوطي (٢٧٥-٣٥٥هـ/ ٨٨٦-٩٦٦م) قاضي قضاة الأندلس في عصره (معجم الأعلام ص ٨٦٢).
(٣) عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله.. بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، ٢٧٧-٣٥٠هـ = ٨٩٠-٩٦١م، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس، وتلقب بالناصر لدين الله (معجم الأعلام ٤٠٢).

..... يا أيها السادة:

إذا أردتم أن تعرفوا من أين جاءت هذه الهيبة في الصدور، وهذه الجلالة في النفوس، وهذه المنزلة عند الخليفة والناس؟ فاعلموا أنها ما جاءت إلا من إخلاصه لله، وخوفه منه، وعبادته لله، واتصاله به. إن من خاف الله خافه كل شيء، ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه، ومن أطاب مطعمه ومشربه استجاب الله دعاءه»^(١).

ويتضح من هذا القول ملامح تأثيره بالبيان القرآني، والأسلوب النبوي في ألفاظه ومعانيه؛ حيث قد بدأ كلامه بأبلغ حروف النداء (يا) مع حرف التنبيه (ها) ليعكس بذلك حرصه على انتباه المتلقي، واستعداده وتهيئته لما يلقي عليه من نتيجة مهمة يحرص على ألا يفوته منها شيء.

ثم استعطف قلوب المنادين بنعتهم «بالسادة» وهي كلمة جميلة محببة؛ وذلك تقريباً وترغيباً لهم في الإقبال عليه.

وبعد هذا النداء، والتنبيه، والاستعطاف، يبدأ كلامه بجملة الشرط، والتي يتعلق الذهن بها، ويتشوق إلى جوابها، حتى إذا أتى به، وهو المقصود، وقع في النفس موقعاً حسناً على انتباه من المتلقي وترقب له، بعد طلبه وتطلعه إليه.

وإذا نظرنا إلى جملة الجواب التي تشوقت النفس إليها، رأيناها مقترنة بأداة القصر التي تؤكد المعنى المتمثل في تمجيد هذه القيم

(١) رجال من التاريخ «خطيب الدهر»، ج ١، ص ٢٢٦.

والمعاني الإسلامية، والتي كانت السبب الحقيقي في مهابة الرجل، وجلاله، وعلو منزلته، وانقياد الناس والحكام له؛ فكان من ذلك دعوة ضمنية قوية للتمسك بهذه القيم، والترغيب في التحلي بها.

ويلمح استمداده المعنى في قوله: «إن من خاف الله خافه كل شيء» من قوله تعالى في شأن هيبة المؤمنين في صدور أعدائهم ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١).

ولعل استمداده المعنى في قوله: «ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه» من الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض»^(٢).

ويلمح استمداد الطنطاوي لمعناه في قوله «ومن أطاب مطعمه، ومشربه استجاب الله دعاءه» من حديث النبي ﷺ الذي رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: «تَلَيْتَ هَذِهِ الْآيَةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة! فقال النبي ﷺ يا سعد! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة. والذي نفس محمد بيده، إن العبد ليقتذف اللقمة

(١) سورة الحشر آية: ١٢.

(٢) صحيح البخاري «كتاب التوحيد»، ص ٩٧، حديث رقم ٧٤٨٥، المجلد ١٢، طبعة دار الريان.

الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً. وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا، فالنار أولى به»^(١).

وهذا ينعكس تأثر الطنطاوي بالقرآن الكريم، والسنة النبوية في أسلوبه، ومعانيه مما أضفى على أسلوبه قوة وجمالاً، ومنحه تأثيراً ونفاذاً.

ويلاحظ في مجموعته (رجال من التاريخ) احتفاؤه بأسلوب التشويق والإثارة؛ ليدفع المتلقي إلى الانتباه والاستجابة، ومن هنا كثيراً ما كان يبدأ ترجمته بعنوان لا يذكر فيه اسم الشخصية، وبمقدمة عنه يستثير فيها ذهن المتلقي إلى التطلع والتشويق لمعرفة الشخصية التي يتحدث عنها، كما في تراجمه التي جاءت تحت عنوان «معلمة الرجال»^(٢) و«سيدة جليلة»^(٣) و«أمير المؤمنين»^(٤) و«العالم النبيل»^(٥) و«الفقيه الأميرال»^(٦) و«من ورثة الأنبياء» التي يقول منها:

«هذه قصة عالم.. عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته... وغاية حياته، وكان. كما قال عن نفسه. يمشي الأيام في طلب

(١) المعجم الأوسط، الإمام الطبراني، ج ٦، ص ٣١٠، حديث رقم ٦٤٩٥، تحقيق طارق بن عوض الله

ابن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين ١٤١٥ هـ.

(٢) رجال من التاريخ «خطيب الدهر»، ج ١، ص ٢٣.

(٣) السابق، ١ / ٣٩.

(٤) السابق، ١ / ٤٩.

(٥) السابق، ١ / ٥٦.

(٦) السابق، ١ / ٦٣.

الحديث الواحد، وبلغ فيه منزلة شهد مكحول الدمشقي العلامة، بأنه طاف الأرض كلها في طلب العلم فلم يجد أعلم منه، وكان أحد بناء هذا الصرح العلمي الذي شاده العلماء من تلاميذ محمد ﷺ.

وكان في هيبته وجراته، وصراحته مع الملوك أمة وحده، وله مواقف مع عبد الملك، والوليد، والحجاج تقرؤها فتحسبها من أحاديث الخيال.

رفض عطاء السلطان فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفاً فلم يأخذ منها درهماً، وكان له (٤٠٠) درهم يتجر بها الزيت ويعيش منها.

وكان فقيهاً، وكان محدثاً، وكان أديباً، وكان شاعراً. وبقي أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو في المسجد، ولم يبدل مكانه من الصف الأول.... كان سعيد^(١) يعني سعيد بن المسيب. رحمه الله.

فالطنطاوي هنا قد ترك لذهن القارئ البحث عن صاحب هذه الأوصاف الجليلة، وشوقه للتعرف عليه، حتى إذا امتلأت نفسه بملامح هذه الشخصية، وتشوق إلى معرفتها صرح باسمها؛ ليقع الكلام من النفس موقعاً حسناً ويترك فيها أثراً مستمراً^(٢).

وهكذا يلاحظ أن الطنطاوي كان في انطلاقه الإسلامي، حريصاً على منح أسلوبه كل وسائل التأثير، فكان يتخير من الأسلوب، ومن اللفظ، ومن الطريقة ما يتناسب مع غرضه، ويلبي هدفه، وينفعل به

(١) السابق، ١/٩٩: ١٠٠.

(٢) الأديب السوري علي الطنطاوي، د/عبد الحميد شعبان، ص ٣١، ٣٢.

وجدان متلقيه، حتى رأيناه في تراجم مجموعته (رجال من التاريخ) يستخدم بعض الألفاظ العامية، والمصطلحات الأجنبية؛ ليوضح اتصاله بالعصر، واتساع ثقافته، وينبه متلقيه. ولعل السبب في ذلك - أيضاً - هو أن هذه التراجم كانت أحاديث إذاعية استخدم فيها - أحياناً - اللفظ (الأجنبي، والعامي) كمثير ومنبه. من ذلك قوله: «المعتزلة هم أصحاب المذهب العقلي في الإسلام (راسيو ناليسيت)»^(١).

وقوله: «وكان يبرز لذويه ولمن يحتشم منه على حقيقته صورة بلا «رتوش» ووجهاً بلا «مكياج»....»^(٢).

وكقوله: «ويقرأ في الكتب الفقه، و«يسيب» أمور الدنيا»^(٣).

وهذا بلا شك يشير انتباه المتلقي بسمعه، ويستحوذ على إعجابه، حين يرى ذلك الكلام يصدر عن شيخ يتكلم في الدين، متمكن من الفصحى، مستوعب للتاريخ، وهو ما لم يكن مألوفاً، كما أشار إلى ذلك أحد مستمعيه بقوله: «وكان يذكر في معرض حديثه كلمات فرنسية، ويشرحها، فيعجب الناس من شيخ يتقن الفرنسية، ويتحدث عن الأدب الفرنسي فنُدْشَهِشَ لعالم دين يعرف الأدب العالمي وشخصياته معرفة وثيقة»^(٤).

(١) رجال من التاريخ «خطيب الدهر»، ج ١، ص ١٢٢.

(٢) السابق، ج ٢، ص ١٧٤.

(٣) رجال من التاريخ، ج ٢، ص ٢٢.

(٤) من كلمة بعنوان «السابقون إلى الدار الآخرة: الشيخ علي الطنطاوي في ذمة الله، الأستاذ/ أنور عبد المجيد الجبرتي (هاجر أم المسلمين) ص ١٧، العدد ٥٠، أغسطس ١٩٩٩ م.

المبحث الرابع

أسلوب الطنطاوي في مقالاته

إذا كانت حرية الأديب تستلزم تعدد المناهج التعبيرية، واختلاف الأساليب البيانية، تعدداً واختلافاً ناشئين عن استجابة فنية من الكاتب، لما يتطلبه الموضوع الذي تفاعلت به نفسه، من طرق تعبيرية، تبسّط الموضوع وتنقل صورته من مخيلة الكاتب إلى المتلقي!

فهي ليست حرية مطلقة - كما يتوهم بعض الدارسين - ولكنها حرية محدودة بأطر فنية، وواقعية، واجتماعية، ودينية، وفطرية، لا مفر من الالتزام بها وعدم الخروج عليها^(١).

والمتمأمل لمقالات الطنطاوي يلاحظ أنه يتناول في معالجة موضوعاته الأساليب البيانية المختلفة مستجيباً في ذلك لما يتطلبه الموضوع، وشعوره تجاهه، وملتزمًا بالأطر الفنية، والإسلامية، والاجتماعية، والفطرية دون تكلف أو اعتمال.

ففي مقالته (مناظرة قصيرة مع الأستاذ عارف العارف خليفة ميشيل عفلق)^(٢) نراه يعتمد في تقديم رؤيته على الاحتكاك الحوارى

(١) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٠٦.

(٢) مجلة الفتح، ص ١٠، العام الثاني عشر، الخميس ١٦ ذي الحجة ١٣٥٦هـ، ١٧/٢/١٩٢٨م.

الناسئ مع طرف آخر له علاقة بموضوعه؛ لتكشف من خلاله للمتلقي أبعاد رؤيته، دون حاجة إلى تصريحه المباشر عما يريد.

ودفع الطنطاوي لاختيار هذا الأسلوب ما كان من تعيين (ميشيل عفلق) مدرساً - وكان نصرانياً - لتدريس العلوم الإسلامية لطلبة الثانوية، وأظهر من الخلط والتلفيق ما لا يرضاه أحد، فثار حوله الكلام، وكتب الطنطاوي مقالين في بيان أغلاطه وبطلانها، مما أدى في النهاية إلى قلعه، ونقله لتعليم الصغار، واستبدال الأستاذ (عارف العارف) المدرس المسلم القادم من كليات باريس به.

وكان أن جمعت المصادفة بين الطنطاوي وعارف، ودار بينهما نقاش حول (ميشيل عفلق) وكتب المستشرقين كمصدر لدراسة علوم الدين.

ونشر الطنطاوي هذا النقاش في تلك المقالة؛ ليطلعنا على رؤيته في ذلك، ويرينا طرفاً من أفكار هؤلاء «الجهلاء» الذين نلقي إليهم مقاليد التعليم في بلادنا منخدعين بشهاداتهم الغربية.

قال الطنطاوي كاشفاً عن ذلك الحوار؛ لتتضح أبعاد تلك القضية:

«... وكان من اللياقة أن أفتح له باب الحديث بهذا السؤال بعد الذي سمعت من أنه كان يسبح في الأرض يجمع ال... شهادات! كما يجمع الناس الحشرات النادرة أو الحجارة الغريبة! وقد ألف مجموعة طيبة من هذه الشهادات جمعها من أكبر الجامعات: في اللاهوت،

والتاريخ، وما لست أدري... فأجابني بأنه عُيِّن في ثانوية دمشق بدل (ميشيل عفلق)...

فسألت الأستاذ عارف عن رأيه في ضلالات هذا الخواجة، وانتظرت بالطبع ما يُتَظَر من كل مسلم، عالم، وهو إنكاره والبراءة من صاحبها؛ وإذا بالأستاذ يفاجئني بقوله: «أنا لست معك يا أستاذ فيما كتبت، ولقد كنت عازفاً على الرد عليك!»

فورد عليّ من كلامه أعجب وارد، لا جزعا من رده، فأنا أعلم، والناس يعلمون، ماذا يصنع معي مثل هذا إذا ردّ عليّ، وأنا أعلم الناس ببضاعة هؤلاء الذين يعودون من أوروبا. وقد ركّبوا بين أكتافهم رأساً إفرنسياً، أو إنكليزياً، فلا يعجبهم شيء شرقي مهما كان، ولا يسوؤهم شيء غربي مهما يكن! ولكنني جزعت -والله- أن يكون هو الخلف المرتقب لذلك السلف الخبيث، وأن يضيع ما كان لنا من أمل فيه، فسألته وقد كتمت غيظي:

ولماذا لا تردّ عليّ اليوم؟ إنه لم يفت الوقت، ومع ذلك فأنا أتحدّك، ولعلي -إن شاء الله- ملحقك به، فإنك تعلم أي قلم في يميني!

فقال الأستاذ عارف: «إن ميشيل عفلق اعتمد على مصادر استقى منها ما قرره، وهو غاية ما يستطيع أن يصنعه ولم يجئ بها من بيت أبيه..»

قلت: ولكن كتب المستشرقين يا أستاذ عارف ليست هي موارد دراسة القرآن، والسنة، والتشريع وأصوله، وإنما موارد العذبة الصافية التي لا مورد قبلها ولا بعدها هي كتب أئمتنا وعلمائنا.

فلم يسمع الأستاذ عارف هذه الكلمة حتى غضب غضبة «إفرنسية» وانتفض كمن لسعته عقرب، وراح يقرر في هياج وصخب، أن المستشرقين أعلم بالقرآن والسنة من علمائنا كلهم.

ولم يطق القوم سماع هذا الهذيان من مدرس محترم يحمل أكبر الشهادات... فثاروا به، وانبرى له فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ/ صالح المدهون فدمغ باطله بالحجج الثابتة، وأكله أكلاً، حتى صار بين يديه مثل الأرنب بين يدي الأسد، فاضطر إلى التراجع، وذهب يلقي كلاماً طويلاً، لم يدع له الرعب رابطة ولا نظاماً...»^(١).

ثم قال الطنطاوي مفنداً هذه الفرية، وساخراً بتصورها: «لست أقول لهذا المدرس أنت عاص، أو خارج عن الملة، فإن في الشبان اليوم من يفتخر بالعصيان والخروج عن الإسلام، ولكني أقول له الكلمة الصادقة التي تؤلمه ولا يجد لها دفعاً، أقول له: يا أستاذ أنت جاهل برغم هذه الشهادات، وهذه الأوراق المصدقات من كبريات الجامعات... ولولم تكن جاهلاً لعلمت أن من العلوم علوم المعقولات كعلوم الرياضة، والطبيعة، وهذه من العلوم التي تستنبط من التفكير والبحث، وهي التي تفوق فيها الأوروبيون علينا كما تفوقنا نحن عليهم في القرون الوسطى، وأن من العلوم ما يكون منقولاً، كعلوم الدين والمدار فيه على تحرّي الصدق والضبط في رواية النص، ولا قيمة فيها لأي بحث أو فكر لم يستند إلى نص كالتاريخ، فهل يرتجل التاريخ

(١) «مجلة الفتح»، ص ١٢٠١ السابق.

ارتجالاً؟ فكيف إذاً يكتب المستشرقون في القرآن والسنة وأصول التشريع الإسلامي إذا لم يعتمدوا على هذه النصوص، وإذا اعتمدوا عليها فما هو الجديد الذي يمكن أن يجيئوا به ولا يعرفه علماءنا؟ وإذا جاؤوا بهذا الجديد فما هي قيمته العلمية في نظر المسلم الذي يعلم أن دينه مستمد من الكتاب والسنة فقط، وما يلحق بهما ويؤخذ منهما من إجماع وقياس...»^(١) إلى آخر ما جاء بالمقال.

وهذا الموضوع يدور حول أمر إسلامي علمي، تطلب من الطنطاوي هذا الأسلوب الحوارى الاحتكاكى؛ ليكشف به عن رؤيته وإحساسه بالخطر تجاه هذه المعتقدات الزائفة التي تستهدف ثقافة الأمة وهوية أبنائها، وخاصة إذا صدرت ممن يتولون التوجيه والتعليم في بلادنا.

وفي مقالته «فن الكلام» يلاحظ أن الحوار غير مفروض من كاتب آخر، ولكن الكاتب رأى أن ما لديه من رؤى قد يضل عنها المتلقي في غيابات الذهنية إذا هي قدمت مباشرة، فلجأ إلى اصطناع شخص آخر يواجهه برؤيته ويجري معه من الحوار ما يبرز في ثناياه الصورة التي يراها؛ لتصل المتلقي مجسمة مشخصة تتحرك الفكرة خلالها واضحة و تكون أسرع إلى قبوله إياها وأعمق تأثيراً فيه^(٢).

يقول: «زارني الليلة البارحة صديق لي فاستقبلته، واعتذرت إليه بأني مشغول.. عندي مقالة، قال: كل يوم مقالة، أو حديث؟ متى تنتهي هذه المقالات وهذه الأحاديث؟

(١) «مجلة الفتح»، ص ١٢، السابق.

(٢) فن المقال في الأدب العربي المعاصر، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٢٩.

قلت: حتى أنتهي أنا...

قال: إنك تنشر باستمرار من أربعين سنة فمن أين تجيء بهذه الموضوعات كلها؟

قلت: أسمع كلمة من تكلم، أو أبصر مشهداً في طريق فأدير ذلك في ذهني ولا أزال أوّلد من الكلمة كلمة، ومن المشهد مشهداً حتى يجيء من ذلك حديث أو مقالة.

قال: أرني كيف تصنع حتى أعلم!

فضحكت وقلت: إنها عملية تتم في ذهني لا في يدي، فكيف أريك ما لا يرى؟

وكنا قد شربنا القهوة ولكني لا أكتفي بها، ووجدت أنها لا تزال بي رغبة إلى الشاي، وأنا كالإنكليز (في هذه فقط) أشرب الشاي في الصباح وفي الأصيل وفي الليل لا أنتهي منه حتى أعود إليه!

فقلت للبنت: قلّي لأمك: بابا يسألك: هل من آداب الضيافة أن نقدم الشاي بعد القهوة؟

فذهبت فقالت لها: بابا عاوز شاي!

قلت له: أسمعت؟ هذا موضوع حديث!

قال متعجباً: هذا؟

قلت: نعم. لقد بعثتها لتتنقل إليها عبارة معناها أنني أريد شايًا، ولكنني جعلتها نكتة لطيفة، ليس فيها أمر، وليس فيها جفاء، فأضاعت

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

البنيت هذه المزايا كلها حين بلغتها المعنى المجرد جافاً قاسياً كأنه أمر عسكري!.

أفلا يوحى إليك هذا بشيء؟

فنظر وقال: لا..!

قلت: أما أنا فقد ذكرني بقصة الأمير الذي رأى رؤيا مزعجة فدعا بمن يعبرها له، فقال له: تفسيرها أنها ستموت أسرتك كلها!، فغضب الأمير، وأمر به فجلد عشر جلدات وطرد. ودعا بآخر، فقال له: ...أيها الأمير إن تعبير رؤياك واضح، إنك أطول عمراً من أسرتك كلها. فسر الأمير، وأمر أن يعطى عشرة دنانير.

والمعنى واحد، ولكن هذا قذف به في وجه الأمير عارياً صليداً كأنه يقذفه بحجر، فخرج مضروباً، وذلك لفته بثوب جميل من حسن التعبير، وقدمه إليه بيمينه برفق وتعظيم وخرج بالجائزة! إن هذا هو الموضوع.

قال: إنني لا أفهم شيئاً إلى الآن؟ فما هو الموضوع؟

قلت: فن الكلام. إن الإنسان كما يقولون: حيوان ناطق، وليس النطق أن يخرج الحروف ويصف الكلام، بل أن يعرف كيف يتكلم، ورب كلمة تدخل الجنة، وكلمة تدخل النار! وكلمة أنجت من القتل، وكلمة دفعت صاحبها إلى القتل! ورب صاحب حاجة عند وزير أو كبير عرف كيف يطلبها فقضيت له، وآخر طلبها فلم يصل إليها! وكثيراً

ما كان يقصدني أرباب الحاجات يسألونني أن أكلم لهم من أعرف من الوزراء والكبراء، وأنا أكره أن أسأل في حاجة لي أو لغيري، فكنيت أعتذر إليهم، ولكنني أفيدهم فائدة أكبر من وساطتي، هي أن ألقنهم الكلام الذي يقولونه للوزير أو للكبير! ولولا أن الوقت يضيق عن التمثيل لضربت لذلك أمثالا.

وفي كتب الأدب العجائب في هذا الباب، ولعلي أعود إلى الكلام فيها يوماً.

وهذا فن لا يتعلم تعلماً ولكن يوصل إليه بالقلب الذكي، وبأن تعرف خلق من تكلمه، والطريق إلى نفسه.

وكل نفس لها باب، وإليها طريق، لم يخلق الله نفساً مغلقة لا باب لها، فهذا يدخل إليه من باب التعظيم، وهذا من باب العاطفة، وهذا من باب المنطق، وهذا من باب التهديد والتخويف، وهذا يزعجه التطويل ويحب الاختصار، وهذا يؤثر الشرح والبيان! ولا بد لك من قبل أن تكلم أحداً أن تعرف من أي باب من هذه الأبواب تدخل عليه.

ولا أذهب بك بعيداً، معك في الدار، أليس لك أولاد؟

قال: بلى.

قلت: قد يجيئك ولدك وهو عابس مبرطم! (والكلمة عربية) فيقول لك بلا سلام ولا كلام: أبغي نصف ريال.

فتقول له: أما أخذت البارحة نصف ريال؟ أكل يوم نصف ريال؟ وتطرده.

ويجيء الولد الآخر فيقبل يديك، ويسلم عليك، ويقول لك: بابا أنا أشكرك لأنك أعطيتني أمس نصف ريال، ولكني أنفقته وأنا أريد غيرها ولكني مستحي منك. وسأقتصد ولن أنفقها كلها مثل المرة الماضية. فتقول له: لماذا تستحي مني؟ هل يستحي أحد من أبيه؟ خذ.. هذا ريال!.

إنك لا تفضل ولدا على ولد، ولا تبخل بنصف الريال، ولكن الأول أساء الأدب، فعاقبته بالحرمان، والثاني أحسن الأدب فأجبت له الطلب.

والمرأة الحكيمة التي تعرف خلق زوجها، وتعرف كيف تكلمه تصل إلى كل ما تريده منه، والمرأة الحمقاء تحرم نفسها من كل شيء!.

الأولى تعرف الوقت المناسب لعرض طلبها فلا تجيء زوجها وهو غضبان أو متضايق، بل تنظر ساعة رضائه، وانطلاق نفسه فتطلب منه. ولا يكفي الرضا منه بل يجب أن يكون مع رضا النفس امتلاء اليد، فإذا كانت تعلم أن الزوج ليس لديه من المال ما يلبي به الطلب لم يفدها حسن العرض ولا جمال القول. وليست العبرة بألفاظ الكلام فقط، بل باللهجة التي يلقي بها هذا الكلام، والتحية إن أقيت باللهجة جافة كانت شتيمة، والشتيمة إن أقيت باللهجة حب كانت تحية، والولد الصغير يعرف هذا بالفطرة.. إن قلت وأنت ضاحك (أخ يا خبيث) سرّ وابتسم، وإن قلت وأنت عابس مهدد: تعال يا آدمي يا - منظوم - خاف وهرب!.

وإن قلت لصديقك في الدار: تقضل اقعد.. كانت مكرمة، وإن قالها رئيس المحكمة للمحامي في وسط دفاعه كانت إهانة!.

مع أن الكلمة واحدة وإن كتبت لم يكن بين حاليتها اختلاف، وما نقلها من حال إلى حال إلا اللهجة...»^(١).

وهكذا يمضي الطنطاوي إلى نهاية المقال، يجلي لنا من خلال حوار الهادئ ما في نفسه، ويكشف لنا عن معاناته اليومية في تجهيز المقال وتأليف الحديث، وما يتطلبه هذا من دقة الملاحظة وسعة الثقافة وذكاء القلب الذي يمكنه من أن يبني من الكلمة موضوعاً، ومن المشهد حديثاً أو قصة؛ لنعلم أنه كلما زاد الكاتب الثقافي كبيراً.. شرّق وغرّب، وأقام الحجج، وجمع الأدلة، وأتى بالعجائب. وكلما كان ذكي القلب، نافذ البصيرة كان مبدعاً طريفاً.

وقد عالج هذا الموضوع أمراً مهماً من خلال أسلوب الحوار، تمثل في أثر الكلمة وارتباطها بسعادة المرء وشقائه في الدنيا والآخرة؛ فكأنه بيان لقول رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يليق لها بالأ يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يليق لها بالأ يهوي بها في جهنم»^(٢).

(١) صور وخواطر «فن الكلام» علي الطنطاوي، ص ٢٨٠ - ٢٨٣.

(٢) رواه البخاري من رواية أبي هريرة - رياض الصالحين، للإمام النووي، ص ٢٨٧، حديث رقم

١٥١٥، ط٢، دار التراث العربي القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

كما كشف الموضوع بأسلوبه الحوارى عن تأثير الكلمة في النفوس ومسها شغاف القلوب إذا أحسن المرء تأتيها وأدرك أبعادها، فراعى طريقة عرضها، وإيحاءها، ومناسبتها، ووقتها، ولهجة نطقها، وقسمات الوجه عند التعبير بها، ونفسية المتلقي لها... وكل هذه الأمور المهمة التي تفيد في فاعلية الكلمة وهيمنتها على النفوس وإصابتها الهدف، والتي يحتاج لمعرفة الناس عامة، والدعاة والمصلحون خاصة.

والطنطاوي لا يقف في عرض موضوعاته على الأسلوب الحوارى، بل يكثر من الأسلوب السردى التحليلى في براعة وعذوبة تأخذ النفس بحسن الترتيب وقوة التدليل، وصدق الوجدان وطرافة الإيحاء، وذلك حين يقصد به تقديم صورة لما يحققه خياله من ربط بين تفكيره ومشاعره تجاه موضوعه^(١).

من ذلك مقالته «التشجيع» التي يقول فيها:

«قرأت مرة أن مجلة إنكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت: إنه التشجيع! وقالت: إنها في تلك السن، بعد تلك الشهرة والمكانة، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الأمام، وتقعدها بها كلمة التشييط عن المسير.

(١) فن المقالة في الأدب العربى المعاصر، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٢٦.

وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي، وانقطاع سبيل التأليف، هو فقدان التشجيع، ذلك «الاحتكار العلمي» الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم، وخنق كثيراً من العبقریات المتهيئة للظهور. فقد كان العلم في الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة لا يتعدها ولا يجوز أن يتعدها، هي: بيت العطار، والحمزاوي، والغزي، والطنطاوي، والشطي، والخاني، والكزبري، والأسطواني، والحلبي...».

«... وكان لهذه البيوت كل معاني الامتياز و«الاحتكار العلمي» فإذا سمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت، وقدروا فيه النبوغ، وخافوا أن يزا حهم على وظائفهم الموروثة، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم، والعدول به إلى التجارة؛ أو ليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت؟ أوليس للولد ولاية العهد في وظيفة أبيه، تنحدر إليه الإمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً، فكيف إذا يزا حهم عليها أبناء التجار، وهم لا يزا حمون أبناء التجار على «حوانيتهم»؟ أو لا يكفي أبناء التجار هذا القدر البسيط من النحو والصرف والفقه والمنطق الذي يمن به عليهم هؤلاء العلماء؟...»

حتى إنه لما نشأ محمد أمين «ابن عابدين» وأنسوا منه الميل إلى العلم، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد والعقل الراجح، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه - وكان أبوه امرأ تاجراً - ليسلك به سبيل التجارة، ويتنكب به طريق العلم، وجعلوا يكلمونه، ويرسلون إليه الرسائل، ويكتبون إليه الكتب، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه، ولكن الله أراد بالمسلمين

خيراً، فثبت الوالد، فكان من هذا الولد المبارك ابن عابدين صاحب (الحاشية) أوسع كتاب في فروع الفقه الحنفي، بل أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلامة (محمد كرد علي) عن العلم، فبعثوا إليه بشقيقتين من آل... قد ماتا فلست أسميهما على رغم أنهما قطعاً عن العلم أكثر من أربعين طالباً - فما زالا بأبيه - ولم يكن أبوه من أهل العلم - ينصحانه أن يقطعه عن العلم، ويعلمه مهنة يتكسب منها، فما في العلم نفع، ولا منه فائدة... ويلحان عليه ويلازمانه، حتى ضجر، فصرفهما، فكان من ولده هذا الأستاذ (كرد علي) أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها، ووزير معارف سورية ومفخرتها...»^(١).

ويستمر الطنطاوي بهذا الأسلوب العذب يسرد أمثلة عديدة لأثر التشجيع في بناء النفوس، وأثر التثييط في هدمها ليقول:

«إن التشجيع يفتح الطريق للعقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها، وتؤتي أكلها؛ ورب ولد من أولاد الصنائع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء، أو أديباً من أعظم الأدباء! وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة إلى منصب الإفتاء، وكرسي التدريس تحت القبة...»^(٢).

ويسير الطنطاوي في هذا المقال بأسلوبه السردى سيراً حثيثاً، ينتقل فيه من مثال إلى مثال، ومن تجربة إلى تجربة يكشف بها ثمار

(١) فكر ومباحث «التشجيع» علي الطنطاوي، ص ١٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣١.

التشجيع الحسنة وأثره الواضح في ارتقاء النفوس واستنفار طاقتها الإبداعية، وكأننا بذلك نتلقى درساً تربوياً مهماً له أثره وخطره في واقع الحياة، ومن هنا لم يغفل الطنطاوي عن أن ينبه في نهاية المقال إلى عيب التشجيع الذي إذا سلم منه المشجع جنى ثمار النجاح فقال: «...على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور...»^(١).

وهكذا يلاحظ أن الطنطاوي قد استخدم في مقاله هذا... أسلوب السرد التحليلي؛ لتبرز من خلاله فكرته في صورتها الكاملة بأدلتها الواضحة، وإحياءاتها المبهرة؛ ليستقبلها القارئ بارتياح واقتناع نتيجة إحساسه بصدق الكاتب وثقته في إيمانه العميق بفكرته التي أحسن عرضها والتدليل عليها.

ويلاحظ أن الطنطاوي أثر في تصويره العبارات والجمل الخبرية بما تحدثه في الصور البيانية والإدراكات العقلية من ظلال اليقين والصدق المستمد من الواقع^(٢).

وتتضح معالجة الطنطاوي لموضوعه بهذا الأسلوب التحليلي في براعة تصوير، وجمال تعبير، وحسن استدلال، وصدق وجدان، وترابط أفكار؛ منطلقاً من وجهة إسلامية ومعارف تاريخية وذاتية؛ ليبين أثر التشجيع في دفع النفوس لاقتحام الصعاب وتحقيق الآمال، وأثر التثبيط في وأد النبوغ وقتل العبقریات؛ ليخط من بين ذلك صورتين

(١) فكر ومباحث «التشجيع» علي الطنطاوي، ص ١٣٤.

(٢) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص ١٤٧.

متقابلتين، ينشئ تقابلهما صورة ثالثة بكامل ألوانها وظلالها، هي التي كانت مقصده من مقالته^(١).

والطنطاوي لم يقف في تناول موضوعاته على أسلوب الحوار الكاشف أو التحليل الواضح فحسب، بل يلاحظ - أيضاً - كثرة اعتماده على أسلوب التأمل كوسيلة بيانية كشف بها عن حقائق موضوعاته، واستجلى بها كوامن أفكاره، سواء كانت عقدية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو فكرية...^(٢).

من ذلك حديثه الإذاعي «حكمة القدر» الذي نشره سنة ١٩٤٨ م قال فيه:

«دخل علينا أمس، وكنا جماعة في المجلس، صديق لنا، فقال: إن ابنة الأستاذ/ حبيب زحلاوي قد سقطت من الطبقة السادسة إلى الشارع! فارتعنا جميعاً، وأعظمنا الخطب، وكنا نعرفها طفلة حلوة ملء إهابها الطهر، والجمال، والنشاط فلم نستطع أن نتصورها وهي مزق من اللحم قد اختلط بعضه ببعض، ووجمنا وكانت سكتة لم يقطعها إلا ضحك صديقنا المخبر! فعرفنا أنها مزحة ثقيلة من مزحاته، وأقبلنا عليه نسبه ونشتمه، فقال: والله ما كذبت عليكم، لقد وقعت من الطبقة السادسة ولكنها لم تصب بشيء، وهي سليمة...»

(١) السابق، ص ٢٤٧.

(٢) السابق، ص ٢٤٩.

فصرخنا جميعاً: سليمة! قال: نعم والله! ألا تصدقون؟ إنها وقعت على حبال الغسيل الممدودة بين الشرفتين حبال الطبقة الخامسة، فعاقتها قليلاً، ونفذت منها إلى حبال الطبقة الرابعة، وما زالت تمر من حبال إلى حبال، حتى إذا بلغت الشارع، كانت سقطتها على كومة من الرمال صبتها سيارة صباح ذلك اليوم، فلم تصب بأذى!.

ومضى يحلف ويؤكد الأيمان أن الذي يرويه هو الصدق والحق، وأن صبيّاً لصديق آخر لا أسميه لئلا أسوءه، وأذكره بمصابه، وقف على مكتب أبيه يلعب، فرأى صورة معلقة بالجدار، فوثب يريد أن يصل إليها، فوقع على أرض الغرفة، وكانت من البلاط، وكانت السقطة على يافوخه، فمات لساعته!.

وقال معلقاً ومتفلسفاً: ففيم إذاً نفكر وندير، مادام لا ينفعنا فكر، ولا يفيدنا تدبير؟ ولم لا ندع الأمور للقدر ونتركها تجري على أعنتها كما يريد لها مجريها؟ وما دمنا لا نملك أنفسنا ولا نعرف مصائرنا، مادام هذا الكون كالمعمل الضخم المشتبك الآلات، المتعدد المتحركات، وما نحن إلا مسمار صغير فيه، نسير كما يسيّرنا «مهندس» الأعظم...

وأسرع واحد منا، فقال مصداقاً: نعم، ولكننا خلقنا للشقاء، وأقمنا هدفاً للمصائب، ووضعنا في الدنيا ما فيها إلا الآلام، من سلم منها اليوم وقع غداً، ومن لم يمت ولده من سقطته مات من علته، أو مات وهو صحيح معافى، ما من الموت بد...

ولا بد قبل الموت من البلى والمتاعب...

وتكلم ثالث، يرى نفسه من كبار العقلاء، فأنكر القدر، وجحد المقدر، وزعم أن الحياة ليست إلا عجيبة في يدك، أنت تديرها وتصورها، فإن صنعت منها تمثال غادة جميلة كان لك جمالها، وإن عملت منها هولة قبيحة كان عليك قبحها...

إن مرضت فمن إقلالك الغذاء وإهمالك التوقي، وإن دعست فمن تركك الحذر، وإن افتقرت فمن قعودك عن السعي... وأمثال هذا الكلام.

فقلت له: فلم ولد هذا في دار علم وتهذيب؛ فتعلم وعرف سبل الوقاية، وخطر الأمراض، ونشأ ذاك في بيت جهل وفساد، فشب جاهلاً فاسداً، لا يعرف كيف يتقي الداء؟ ولماذا دعس هذا من قلة حذره، وسلم من هو أقل منه حذراً، وطريقه أشد خطراً؟

ولماذا يسعى الرجل حتى تنقطع من السعي أنفاسه، ويرجع ولم يصل، ولا إلى مثل خفي حنين، وتأتي الأموال لآخر بلا سعي ولا طلب؟

ولماذا يتاح لهذا النابغة أن يظهر نبوغه، حتى يكون اسمه تسبيحاً على كل لسان، وعنواناً في كل كتاب، ويجهل من هو أحد منه ذكاءً، وأكبر موهبة، وأظهر استعداداً للنبوغ؟

ولماذا؟ ولماذا؟ وألف لماذا، لو شئت لسقتها لك فما استطعت الجواب على واحد منها. فما أنت في الوجود؟

هل تُسيّر أنت الفلك على هواك، وهل تسوق الكون إلى غايتك،
هل أنت إله؟ إنك ما كوّنت نفسك، ولا شققت بيدك سمعك ولا
بصرك...»^(١).

فالطنطاوي - كما نرى - لفت نظره بعض أحداث الحياة المثيرة
وتطلّع أصدقائه - أو من جردهم من نفسه - لمعرفة السر وراء هذه
الأحداث، وما تثيره في العقول من اعتقادات متباينة لها خطرها،
وبُعدها الديني والاجتماعي.

فرأى الطنطاوي أن يثير هذه الأسئلة التي تنقد هذه الاعتقادات،
وتخلص العقل من رواسبها الأثيمة؛ ليفتح بعد ذلك آفاقاً جديدة من
تأملاته، تتكشف من خلالها رؤيته العميقة التي يطمئن إليها العقل
وتهتدي بها النفس من حيرتها واضطرابها.

قال: «فهل ترى أنت أن الإنسان مسير؟».

قلت: ما مسير؟ وما مخير؟ وما هذه الفلسفة الفارغة؟ لقد اشتغل
بها البشر من يوم بدؤوا يفكرون واختلفوا عليها، وتجادلوا، ولا يزالون
يختلفون ويتجادلون، لم يصلوا إلى شيء، وإنما تاهوا في بيداء لا أول
لها ولا آخر، وهاموا على وجوههم في مَهْمَةٍ متشابهة الأرجاء، بلا
أمل ولا رجاء، فذهب هذا ينكر القدر ويزعم أن الحياة ملك الإنسان،
وأحداثها صنع يديه. وراح ذاك ينكر إنسانيته ويجحد نفسه، ويرأها

(١) صور وخواطر، ص ١٢١ - ١٢٢.

مسماراً في آلة الكون، وحجراً في جبل يدور مع الأرض أتى دارت. وكان هذا متشائماً لا يرى إلا الذي وقع عن الكرسي فمات، فاعتقد أن الدنيا دار المصائب، وكان ذلك مغروراً لم يبصر إلا التي وقعت من الطبقة السادسة ولم تمت، فحسب أنه يسلم من كل أذى.

ونحن مع القدر بشر، لا آلهة ولا حجر، والدنيا ليست مسرة كلها ولا مصائب، ولكنها مسرة وكدر.

وأنا كلما فكرت، وذكرت ما رأيت من الحوادث بعيني ازددت يقينا بأن أكثر الناس لا يعرفون سر الإيمان بالقدر!

رأيت الترام مرة وقد انكسر مقوده، فانحط من المنحدر الهائل عند (الجسر) في دمشق وكانت امرأة واقفة بين خطيه بعد المنعطف، فلما رأته مقبلاً كالموت النازل، سمّرت رجلاها من فزعها بالأرض وجمدت، ولم يجروا أحد أن يدنوا لإنقاذها فيموت معها، والوقت أضيق من أن يتسع لشيء، فأغمضوا عيونهم حتى لا يروا... فلما وصلت الحافلة إلى المنحنى تركت الخط وسارت قدماً، فصدمت جداراً من اللبن ضعيفاً، ومرت منه إلى قوم في دارهم فقتلتهم.

ورأيت مرة بعيني شاباً يمشون تحت فندق (عدن بالاس) في دمشق فرفع أحدهم رأسه فجأة، فرأى شيئاً يهوي وقد صار حيال بصره فتناوله بيده، وإذا هو صبي رضيع وقع من شباك الفندق، وهبطت أمه كالمجنونة، وهي امرأة من (حماة) فرأته سالماً... ورأى غيري حوادث مثل هذه الحوادث!

وفي كتاب (الفرج بعد الشدة) للقاضي التنوخي مئات من القصص عمّن نجا وهو في لجّ الهلاك، وفي كتاب الحياة آلاف من الأخبار عمّن هلك وهو على برّ النجاة.

فما سر هذه العجائب؟ وكيف عاشت المرأة وقد فرطت وعرضت نفسها للموت بسيرها بين خطي الترام، ومات قوم اتخذوا كل أسباب الوقاية، فدخلوا دارهم، وأغلقوا بابهم، فشق الترام الحائط ودخل عليهم فدعسهم، وكيف وقعت البنت فلم تمت، وتموت كل يوم مئات من البنات من غير وقوع؟.

إن هذا هو السر الذي لا يعرفه أحد، فلا تحاولوا كشف سر القدر، ولكن استفيدوا من حكمة القدر، وهذا ما سقت له حديثي...»^(١).

فالطنطاوي في هذا المقال عالج موضوع القدر من خلال تأملاته وسبحاته الفكرية، ذلك الموضوع الذي حير الفلاسفة، وشغل المتكلمين دون جدوى نافعة؛ ليقنعنا بأن الجهل بسر القدر ابتلاء، وإخفاء عنا نعمة من الله تعالى، وقوة تدفع المسلم إلى الخير والجد والاجتهاد دون تقصير أو تواكل، فإذا لم يوفق المسلم -بعد ذلك- إلى مراده استسلم لحكمة الله وقدره، مؤمناً بإرادته الغالبة، وحكمته البالغة في تقديره الخير لعباده المؤمنين، وإن توهّموا غير ذلك، قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

(١) صور وخواطر، ص ١٢٤.

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

تَعْلَمُونَ^(١)، فإن آمن المرء بذلك قرت عينه، وسكنت نفسه، ونجا من سخط النفس، ووخز الضمير. وتلك هي حكمة القدر التي يريدنا الطنطاوي أن نعرفها ونستفيد منها فقال:

«والإيمان بالقدر راحة؛ لأنه لو كان الفشل من عملك وحدك، وكان النجاح من صنع يدك لقطعت نفسك أسفاً إن فشلت، أو سبقت.

والإيمان بالقدر عزاء، لأنك إن قدر عليك المصاب بولد، فاحمد الله ففي الناس من أصيب بولدين، وإن خسرت ألفاً ففيهم من خسر ألفين.

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدر؟

هي أن نجد ونعمل ونسعى، ونبذل الجهد، ثم لانحزن إن فشلنا، ولا نياس إن لم نصل إلى ما نريد. وأن نكون مع القدر كمن يجتاز طريقاً فيه السيارات المزدحمة، فإن ذكر حوادثها وأخطارها وحدها لم يستطع أن يتقدم خطوة، وإن اعتقد من غروره أنه يستطيع أن يرد عنه السيارات المقبلة، ويدفع الخطر الآتي لم يسلم، ولكن إن انتبه وسار بحذر، فهذا هو العاقل، ثم إن نجا حمد الله إن قدر له النجاة، وإن أصيب ذكر أنه لم يقصر، وإنما هو حكم القدر^(٢).

فالأسلوب هنا وإن كان تأملياً إلا أن كاتبنا استعان بالحوار؛ ليقدم لمتلقيه أبعاداً أخرى أسهمت في اكتمال الرؤية المقصودة. وقد اعتمد

(١) سورة البقرة آية ٢١٦.

(٢) من مقالة حكمة القدر «صور وخواطر»، ص ١٢٢ - ١٢٦.

الطنطاوي على معلوماته ومشاهداته التي عايشها بعواطفه واستقرت في وجدانه الإسلامي فنقلها إلينا بأبعادها الإسلامية كما يراها.

ويلاحظ أن كاتبنا قد انتقل في تتبع مستقص من الكلام عن القدر، إلى الكلام عن الحكمة من الإيمان به، مولداً الأفكار، ومقدمات الدلائل في سهولة لفظ، وجمال عبارة.

وإذا استخدم الطنطاوي الأسلوب الساخر تجسدت براعته في موضوعاته التي تحتل التناقض الذي يثير سخريته وسخرية الآخرين، لما فيها من فساد، مثل فساد الحاكم أو فساد السياسي أو فساد غيرهما ممن يشبههما في دورهما الريادي، كالداعية، والمدرس، والأبوين...، أو لما تضمنه من ظلم المعتدين.. أو لما تكشفه من تناقض، مثل صنيع الثري البخيل، والشيخ المراهق، والجاهل المتعالم... أو لما فيها من خداع وضلال، مثل كثير من العادات الاجتماعية الضارة التي يتمسك بها الناس.. كما في حديثه الإذاعي «أنا والإذاعة» والذي قال فيه:

«أيها السادة:

إني أشكو إليكم القائمين على هذه المحطة، فقد ظلموني وظلموكم معي. جاؤوا بي لأحدثكم، فحسبت أني سأدخل ناديا فيه أناس أراهم، فأخاطبهم على قدر عقولهم، فإن كانوا علماء كلمتهم كلام العلماء، وإن كانوا من العامة خاطبتهم خطاب العامة، فإذا هم يصعدون بي درجاً بعد درج حتى إذا كنت رجلاي من الصعود، وهممت بالرجوع، قالوا: قد وصلنا، فنظرت فإذا نحن في أعلى طبقة من (عمارة البرق

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

والبريد) فتلفت أنظر أين النادي الذي سأخطب فيه! فما عهدت نادياً يبنى على رأس مئذنة! وأين الناس! وإذ هم يدخلوني من دهليز إلى دهليز حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة، فأشاروا إلى باب، وقالوا:

(هُس! إياك أن تتكلم، أو تعطس، أو تسعل، أو تخبط برجلك، أو تشخس بأوراقك...!)

فقلت: فكيف إذاً أتحدث! أتريدون أن يكون حديثي إيماء وإشارة من غير كلام على لغة الخرسان!

قالوا: لا، ولكن إذا جاء دورك تكلمت.

وفتح الباب، ودخلنا غرفة صغيرة كأنها الصندوق المغلق، لاشباك، ولا باب، ولا نافذة، ولا كوة، ولا شق لدخول الهواء! ورأيت فيها مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة، وقد وقف أمامها شاب يصوت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه، وبعضها من صدره، وبعضها من بطنه، ويتخلع ويتلوى مع النغمات، وقد يأتي بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم، ووراءه رفاق له يضربون بأعوادهم ويزمرون، فأجهدت ذهني خمس دقائق كاملات لأعرف ماذا يصنع هذا الرجل: أيغني أم يخطب أم هو مصروع معتوه يخلط، أم يتكلم بلسان أهل مألطة! فلم أهتد إلى حقيقته، ثم سكت وتقدم من العلبة أحد موظفي المحطة.

فقال: لقد انتهت الحفلة الموسيقية..

فقلت: إذاً هي حفلة موسيقية! سبحان القادر على كل شيء!...».

وبعد هذه المقدمة التي هيأ بها النفوس - كعادته - لموضوعه، ونبه الأذهان لاستقباله بذكر هذه الحوادث المثيرة قال:

«... لقد فكرت طويلاً وحشدت قوى نفسي كلها، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل، لآتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا: ما شاء الله كان! ما هذه المحاضرة؟ شيء عظيم جداً، ولكن لم أستقر على موضوع.

قلت: الدنيا الآن في رمضان، وخير الأحاديث حديث الدين، وما أسهل الكلام في الدين في هذه الأيام! وما أيسر أن يجعل المرء نفسه مجتهداً وأن يرى الرأي المخالف لأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والليث بن سعد، والأوزاعي، وكل مجتهدي الأرض فيتمسك به، ويخطئ المخالفين من كان منهم ومن سيكون إلى يوم القيامة.

ولم لا؟ إنه رجل وهم رجال، والحداد والنجار والموسيقي رجال أيضاً، فلماذا لا يكونون أئمة مجتهدين، ومادام العلم بالعربية نحوها، وصرفها، وبلاغتها، والفقه أصوله وفروعه، والتفسير والحديث ليس شرطاً في الاجتهاد؟

ومادامت الحكومة تمنع غير الطبيب أن يكتب وصفة دواء، وغير المهندس أن يرسم مصور بناء، وتدع من شاء يتكلم في الدين والأدب بما يشاء؟ وما دام كل ما يحتاجه الرجل في هذه الأيام؛ ليكون واعظاً مرشداً يُقتدى به ويُستمع لقوله، وتقبل يده، ويُتمسح بذيله، أن يُعرض

لحيته، ويكْوَر عَمَّتَه، ويوسَّع جَبَّتَه، ويطوِّل سبَّحَتَه، ويتكلم كلاماً تقبله العامة ولو خَرَّف وخلَط وضلَّل، وأكل الدنيا بالدين، واستغل غفلة الغافلين، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول!.

لا.. لن أتكلم في الدين، فالكلام فيه شديد الخطر، فأنا أخشى أن أقول الحق فأغضب الناس، أو أقول الباطل فأسخط الله. ثم إنني طلبت الليلة مرضاة السامعين، وأكثر السامعين لجهلهم بالدين، ولطول ما رأوا من أدعياء العلم فيه، منصرفون عنه زاهدون في حديثه، حتى الأتقياء الصالحون منهم، الذين يتمسكون في رمضان بدينهم فيقضون نصف النهار في (الأموي) نائمين يشخرون وينخرون، أو متحلقين حلماً يمزحون في الجامع ويضحكون ويكذبون ويغتابون!

فلنتكلم في الأدب، فالأدب أسلم عاقبة، وأوسع حرية، وهو هين عليّ وعلى غيري، وقد صار الأدب الآن كوصل (ليلي) كل يدعيه، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً في ورقة، ويجد صفاً يصف له حروفه، وصاحب جريدة ينشره، فهو كاتب بليغ. وكل من يأتي بلفظ موزون، أو شبه موزون فهو شاعر مُفْلَق. وكل من يحفظ خبراً عن أبي تمام والمتنبي، أو هوغو ولامارتين، أو شكسبير وملتون، فهو أديب أريب. وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق!. ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم ﷺ ويتكلم كما يتكلمون، ففكر تفكيراً غير آدمي، وتكلم كلاماً ليس بإنساني، فهو شاعر رمزي! وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء؛ إذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون!

لا.. يا سادة! إن الأدب امتهن وابتذل، فلن أتكلم في الأدب!

أفأتكلم في السياسة؟ إن السياسة في بلدنا أن ينتقد الرجل قوانين الحكومة ويتكلم في رجالها، ويتهم كل أمين يكرهه بالسرقة، ويصف كل سارق يحبه بالأمانة، ويكون له رأي في الملك عبد الله، وابن السعود، وأتلي، ومولوتوف، وترومان! ويرسم أحسن الخطط لمحاربة الغلاء، وتنظيم ملاكات الموظفين، وحل مشكلة فلسطين، وإدارة ألمانيا المحتلة! ويقترح وجوه الإصلاح للجامعة العربية، وهيئة الأمم المتحدة، ولو كان تاجراً أمياً، أو سائق ترام، أو شيخ ضيعة، يضع بصمة إبهامه مكان التوقيع على دفاتر الانتخابات!

لا.. لن أتكلم في السياسة. أفأتحدث إليكم في الفلسفة؟ لقد اشتغلت بها حيناً، وأنا أستطيع أن أتفلسف متى أردت، ولا يكلفني ذلك إلا أن أقول ما لا أفهمه أنا ولا القراء! وأن أنظر إلى كل ما تواضع عليه الناس من أفكار وعادات، فأقيم لهم أدلة غامضة لا تدرك، على أنه خطأ، وأن الصواب هو عكسه!

وبعد - يا أيها السادة - فاعلموا أن وقت حديثي قد انتهى، وأنني قد خدعت القائمين على المحطة فأطعتمهم، وكلمت العلبة ربع ساعة، وقبضت الأجرة، ولم أقل شيئاً. وكذلك يكون الرجل الناجح في هذه الأيام، يأخذ الأجرة من غير عمل، ولنا في ساداتنا العلماء الأعلام مدرسي دائرة الفتوى قدوة غير حسنة.

ولا تعجبوا - يا سادة - فكل الناس تاجر يعرض بضاعته، ونحن

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

— معشر الأدباء — بضاعتنا الكلام، وكل كلام له ثمن، فهاتوا كثيراً تسمعوا جيداً، وإلا فالبضاعة كلها من هذا النوع»^(١).

وواضح أن سخرية الطنطاوي هنا ليست سخرية بالأفراد، بل هي سخرية من أعمال سيئة، وسلوكيات منحرفة، قام بها بعض الناس، ولم يكن مبعثها خصومات شخصية، أو أغراض نفسية، وإنما كانت لرغبته في إصلاح الواقع وفق منهج الإسلام، وبذلك ابتعدت سخريته من السخرية التي حرمها الله ونهى عباده عنها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾^(٢).

وقد بدا هنا أن سخرية الطنطاوي سخرية موظفة، تهدف إلى التهذيب والتقويم من خلال تسفيه سلوكيات منحرفة. ومناهضة تقاليد باطلة، وإبراز نقائص الواقع وتضخيمها، والهزاء بها في محاولة لاستهجانها، وتشويهها، واستبدالها بما هو صحيح^(٣).

وقد تمكن الطنطاوي بهذا الأسلوب الساخر من إبراز المعايير، ولفت النظر إلى المثالب المتعلقة بتدني الأذواق، والتلاعب بالدين، ورخص الأدب، والتخليط في السياسة، والإهمال في العمل، بنقد مهذب مثير، وبطريقة طريفة بديعة، تحرك الفكر إلى المقارنة بين الواقع السيئ وما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع. ولهذا كثرت المفارقات

(١) صور وخواطر «أنا والإذاعة»، ص ١٧٢ - ٧٨.

(٢) سورة الحجرات من الآية ١١.

(٣) الأدب الإسلامي «الذكريات أنموذجاً» أحمد بن علي آل مريع، ص ٩٠، العددان (٢٤، ٢٥).

الواقعية، والمقابلات البيانية التي تثير الدهشة، وتدعو إلى الضحك، وتدفع إلى السخرية والاستهجان^(١).

كما اتضح توظيف الطنطاوي لسخريته في طرح رؤيته بظرف وخفة مرحلة، وسرعة بديهة، وبصر نافذ، وخيال خصب، ومقدرة فنية مكنته من الربط بين ما يرى وما يثير من هذا الذي يراه معتمداً في سخريته على ما يثير الدهشة؛ لمعرفته بطبيعة الإنسان الذي يُدهش بكل جديد وغريب. ومعتمداً. أيضاً. على الكلمة الرشيقة التي أدّت دورها في إثارة السخرية، وإصابة المعنى.

فألفاظه - كما يلاحظ - عذبة، وكلماته مألوفة موحية، وتراكيبه سيرة، وصوره قريبة، ومعانيه واضحة بديعة، ينتقل بينها في تلمظ حسن، وتشويق جميل.

ويلاحظ كثرة اعتماد الطنطاوي على الأسلوب القصصي في معالجة موضوعاته؛ ليتمكن من بث الحياة والحركة في أشخاص القصة، كي تنمو المواقف فيها، وتتوالى أحداثها بطريقة طبيعية، مع الحرص على تحليل ما قد ينشأ في أثناء ذلك من العواطف، أو الانفعالات التي يريد نقلها لمتلقيه^(٢).

من ذلك مقالته «ثمرات درس الأخلاق»^(٣) يقول فيها:

(١) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٦٢.

(٢) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٧٨، ٢٧٧.

(٣) مقالات في كلمات، ج ١، ص ٢٠٠.

«... ونظرت من الشباك أتسلى، وكان تحته كومة رمل أبيض وضعها جارنا، ووكل رجلاً وولده بنقلها إلى حديقته، فأقبل تلاميذ المدرسة، فقال عفريت منهم: تعالوا نسرق من هذا الرمل! فقالوا: إن الولد يرانا. قال: نعمل مثل الراعي الكذاب الذي قال لنا المعلم قصته، حين نادى: الذئب! فجاؤوا فلم يروا شيئاً، وضحك منهم، فلما طرق الذئب حقيقة ونادى لم يجئه أحد! قالوا: وكيف نفعل؟! قال العفريت: انظروا!

وأقبل كأنه يريد أن يسرق، فنادى الولد أباه، فترك عمله في الحديقة وأقبل، فلم ير شيئاً، ورأى التلاميذ يضحكون فرجع، وجعل التلاميذ يأخذون من الرمل والولد ينادي فلا يردّ أبوه ولا يصدقّه...

وكانت هذه ثمرة درس الأخلاق في المدرسة!»^(١).

فيلاحظ هنا أن الطنطاوي قدّم موضوعه في أسلوب قصصي استعان فيه بالسرد والحوار؛ ليكشف لنا عن معاناته النفسية (بتلك القيمة الأخلاقية في الدرس المدرسي) حين عرضت مجردة من مقاصدها الشرعية، وأبعادها الإسلامية التي ينبغي أن تنبني على التخويف من الله، ومراقبته، والإشعار بعظمته... قبل التخويف من الناس، حتى لا تفقد القصة هدفها وتضر من حيث يراد بها النفع!

وقد استطاع الطنطاوي من خلال هذا الأسلوب القصصي المصوّر أن يولّد في نفس القارئ التعليم والتوجيه الخوف

(١) السابق، ١/ ٢٠٠.

والحذر من عرض الأخبار مجردة من أبعادها الإسلامية، وأهدافها التربوية، منبهاً لخطورة ذلك، برسم تلك الصورة المعبرة عما يريد، وقد كان يقول:

«يجب على المعلمين أن يدلّوا التلميذ على الطريق السويّ، والخطّة المستقيمة... أن يعلموه من هم أجداده، وما هي حضارتهم، وأن يصبوا في نفسه أخلاق العروبة، وآداب الإسلام، وأن يحبّوا إليه العلم»^(١).

وهكذا نرى الطنطاوي - بدافع من موهبته وإحساسه الفني يختار من الأساليب ما يتناسب مع موضوعه، ويتلاءم مع إحساسه به، سواء كان هذا الموضوع عقدياً، أو اجتماعياً، أو سياسياً، أو فكرياً... وسواء كان صحفياً، أو حديثاً إذاعياً على نحو ما رأينا.

وكما نوع الطنطاوي في أدائه التعبيري نوع في مستوى أسلوبه جزالة وسهولة، وعمقاً وقرباً.

ومن هنا «يجب أن يفرق القارئ بين أحاديثه التي خاطب بها العامة، وأحاديثه التي قدمها للخاصة، فكل واحد من هذين له طبيعته الخاصة به.

وكاتبنا علي الطنطاوي - بدافع من توجّهه الإسلامي، وحرصه على توصيل رسالته - يعي قدرات السامعين والقارئین لكتاباتة؛ ولذا فإنه لا يؤثر طبقة على حساب طبقة أخرى، بل يصنف وينوع أحاديثه، فتجيء مرة متفقة ومستوى العامة، وأخرى توافق الخاصة.

(١) من حديث النفس، علي الطنطاوي، ص ٥٢.

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على كثرة سامعيه، وتنوع المتلقين لكل ما ينشئه^(١).

ومن يتأمل ألفاظ الطنطاوي يراها - في عمومها - قريبة في بلاغتها، سهولة في فصاحتها، مختارة بعناية اختيار متذوق قوي الإحساس بمواطن الجمال، وأسرار اللغة.

وجُمْلُهُ تموج بالحركة والحياة والإحساس الذي يدل على أنها منتقاة بملكة قادرة تعرف وجوه اللغة، ومرامي الكلام.

وتراكيبه تتسم بانسيابية جاذبة، وإسهاب مطرب، وسلاسة أسرة، وبناء محكم بليغ من صدق إحساسه وقوة انفعاله التي يستشعر منها المتلقي عذوبة ورقة، وسمواً وإشراقاً، وخفة ومتعة، تهز النفس هزاً، وتدفعها إلى الإقبال والاستزادة دون ملل أو فتور.

ويلاحظ إسلامية أسلوب الطنطاوي من خلال عفة ألفاظه، وسمو عباراته التي تدل على تأثره بالأداء القرآني والبيان النبوي في سعيه لأداء رسالته الإصلاحية والدعوية التي ترتقي بأذواق الجماهير وأفكارهم، وتحافظ على مشاعرهم وأخلاقهم... ومن هنا رأينا يتقن في سوق الخبر، مبتعداً فيه عما يجرح العفاف، أو يخدش الحياء، أو يثير الاشمئزاز، معتمداً على موهبته في توصيل ما يريد باللفظ الموحى والعبارة الدالة، أو ترك مساحة منقطعة، وكأنه يقول شيئاً لا يستطيع

(١) الأديب السوري علي الطنطاوي، د/ عبد الحميد شعبان، ص ١٢.

أن يبوح به، أو يطلب من متلقيه أن يتصور ما يفضي إليه السياق من دلالة يمنعه حياؤه وذوقه من الإفصاح بها! ^(١).

من ذلك تعبيره في مقالته «الحب والزواج» عما يريده الرجل في نفسه من المرأة بعبارة عفيفة نظيفة لها دلالة على ما يريد. يقول:

«... لا يا أولادي، لا والله العظيم، إنه لا يريد جمالها لعينه، ولا حديثها لأذنه، ولكن يريد قفلها لمفتاحه!..» ^(٢).

ومن ذلك ما حكاه عن الشيخ الذي ثبت العلامة سليم البخاري عن التأليف حين قدم له رسالة صغيرة صنعها في المنطق فقال له: «أيها المغرور! أبلغ من قدرك أن تصنف وأنت... وأنت... ثم أخذ الرسالة فسجّر بها المدفأة.. فكانت هي أول مصنّفات العلامة البخاري وآخرها!» ^(٣) فالسياق يوحي بأن هذه المساحة المنقطعة شتائم وسباب أو سخرية واستهزاء، ينأى الطنطاوي عن ذكرها.

وتبدو وجهة الطنطاوي الإسلامية في أسلوبه من خلال حبه للفصحى، والتزامه بها، واجتهاده في بعض قواعدها بما يوافق الصواب، مصدرًا في ذلك أحكاما وآراء نقلت عنه، واستحسنها كثير من أساتذة اللغة ومحبيها ^(٤).

(١) دراسات في النص الشعري «العصر الحديث». د/ عبده بدوي، ص ٧٢، دار قباء، القاهرة.

(٢) «الحب والزواج»، مع الناس، ص ٥٢.

(٣) «التشجيع»، صور وخواطر، ص ١٢٠.

(٤) من مقالة قراءة في آثار الشيخ علي الطنطاوي، ص ١٠٠، أحمد بن مسفر بن معجب، مجلة

المنهل العدد ٥٦١، المجلد ٦١ رجب ١٤٢٠ هـ. انظر مقالات في كلمات ١٩٦ / ٢ وما بعدها.

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

وبدافع إيمانه بقدره اللغة العربية على احتواء كل جديد، فقد شارك في تعريب بعض المصطلحات الأجنبية منبهاً عليها في هوامش ما كتب.

من ذلك: كلمة (الراد) تعريباً لمصطلح (الراديو)؛ لأنه يرد الصوت على المستمع^(١).

وكلمة (الرائي)، وضعها بديلاً لمصطلح (التلفزيون)، إذ إنه اسم فاعل بمعنى مفعول أي المرئي^(٢).

وكلمة (التكنولوجيا) يرى أن نقول بدلاً منها (تقانة) على وزن نجارة، وحدادة، وطيانة، وهو شبه قياسي^(٣).

ويلاحظ أنه - أحياناً في مخاطبة العامة - يجري لفظاً عامياً، أو عبارة متداولة، أو مثلاً سائراً، أو نحو هذا... مما يخف وقعته على الأسماع، ويعين على بيان حقيقة المراد. وهذا من منهج الداعية الناجح، «وهذا هو النبي ﷺ كان يدخل في كلامه ألفاظاً أجنبية، ويعدل عن لهجته الأصلية؛ ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من اللهجات»^(٤).

(١) راجع هامش «ذكريات علي الطنطاوي»، ج ١، ص ٢٥١.

(٢) راجع هامش «ذكريات علي الطنطاوي»، ج ١، ص ٢٥١.

(٣) السابق، ج ٦، ص ٢٢.

(٤) راجع «تذكرة الدعاة» للبهي الخوي، ص ٢٩٠، دار التراث، ط ٨، القاهرة ١٩٨٧م.

فمن سوقه العامي الفصيح «وعلا العياط والزياط»^(١).

ومن سوقه المثل على سبيل الاستئناس وتأکید المعنى: «والى متى تكرر هذه المهزلة «أوسعته ضرباً وأودى بالإبل»^(٢).

ويلاحظ أن هذه المظاهر الإسلامية والخصائص الأسلوبية لا تختلف في مقاله الذي أعده للنشر عنها في حديثه الذي أعده للإذاعة؛ لذلك كان ينشر من مقالاته الإذاعية في المجلات.

ومع ذلك يمكن تلمس الفروق الدقيقة بينهما:

«فالمقال الإذاعي يبدو عليه طابع السرعة في التنسيق بين الأفكار، وترتيب النتائج على المقدمات، وأسلوبه فيه لا يرقى إلى أسلوبه في المقال المعد للنشر، أو البحث الذي يوفر له الوقت الكافي لترتيب الأفكار، واختيار مستوى أرقى من الأسلوب»^(٣).

ولعل السبب في ذلك هو استجابة الطنطاوي لما يستلزمه الحديث الإذاعي من تقريب الفكرة، وسهولة العبارة؛ لأنه يقدمه لجماهير مختلفة الثقافة، متفاوتة الإدراك، أغلبها من العامة الذين لا تستهويهم جزالة الأسلوب، وعمق الفكرة بقدر ما يستهويهم قرب العبارة، وحسن الإشارة، وطرافة الفكرة ووضوحها.

(١) مقالات في كلمات، ص ٢٢١.

(٢) السابق، ١٢٩/١. الفاخر لأبي طالب المفضل بن مسلمة بن عاصم، تحقيق عبد العليم الطحاوي، ج ١، ص ١٧٦، ط الهيئة المصرية العامة.

(٣) الأديب السوري علي الطنطاوي، د/ عبد الحميد شعبان، ص ١٢.

كما أنه في حديثه الإذاعي كان ملزماً بأن يفرغ شحنته الوجدانية، أو يقدم رؤيته الفكرية، أو عرضه المصور في مساحة زمنية لا يتجاوزها، مما فرض عليه أن يكون في كتابته له دقيق العبارة، موجز الصياغة، مالكاً أدوات التأثير اللفظية؛ بحيث يكون لألفاظه إيقاع مخصوص، يبلغ به مناط التأثير في المتلقين، على اختلاف مشاربهم^(١).

ولقد كتبت لأحاديث الطنطاوي الإذاعية القبول والنجاح، مما جعله بحق من أفضل المحدثين الإذاعيين؛ حيث نجح في الاستفادة من موهبته الأدبية والإلقاءية، وتوظيف ثقافته التي وسعت الماضي والحاضر، والشرقي، والغربي، والأدبي، واللغوي، والسياسي، والاجتماعي، والديني، والدنيوي.. في خدمة موضوعاته وتحقيق أهدافه، في قرب يلتصق بواقع الناس ويمس حياتهم.

كما كان لروحه المرححة التي لم تكن تفارقه، وبساطته العجيبة التي يواجه بها جمهوره، والتي تتناسب مع البساطة التي كان يطبع بها لغته وأفكاره ومعالجته لموضوعه أثر بيّن في أسر النفوس وإقبالها.

بالإضافة إلى ذلك، حركية أسلوبه، التي تبعث في مشاهده الحياة، وكأنها متحركة محسوسة، وقد أضاف إلى حركية أسلوبه حركية إلقاءه وتحديثه، والتي تمثلت في تفاعله مع الكلمات، وإحساسه بها، واختياره لكل لفظة ما يناسبها من لهجة، وتعبير وإشارة، وأداء مؤثر، يصعب أن يتوافر لكثير من المحدثين؛ ليبليغ بذلك ما يريد.

(١) فن المقال في الأدب العربي المعاصر، د/ إبراهيم عوضين، ص ١٨٧.

فكيف لو أضفنا إلى المظهر الشخصي لعلي الطنطاوي تاريخه العجيب، الحافل بالوقائع الجريئة التي لا تصدر إلا عن مثله، والخطوب الجسام التي لا تقع إلا لمثله، والمغامرة المتشعبة الجوانب التي ندر أن خاضها أحد غيره.

إن تاريخ الرجل مضافاً إلى حاضره، وإلى شخصيته، وإلى خلقه المتفرد، وأسلوبه المميز، وفكره العميق، ومنهجه العقلي، وتجربته الإنسانية الفريدة، تتعاضد جميعاً؛ لتمنح أحاديثه عند المستمع أو المشاهد قوة تأثيرية نافذة، ولقد لمسنا هذا الأثر القوي من مجرد (قراءتها) فيما مرّ من نماذج^(١).

وبهذا يتبين أن حس الطنطاوي الإسلامي، وحرصه على أداء رسالته الدعوية جعله يتخير الأسلوب الأنسب، والطريقة المثلى التي تقي بغرضه وتحقق أهدافه في سمو وإبداع.

ومن هنا كانت معانيه راقية صافية، بعيدة عن الخلط، والغموض والاضطراب، على أن معانيه هذه لم تكتسب صفاءها، وروعيتها، وتأثيرها من سلاسة ألفاظه، وعذوبتها فحسب برغم براعته في ذلك، ولكن من قوة إحساسه بها، وصدق إيمانه وعواطفه في التعبير عنها. لذلك قلما وقع في ضعف التعبير الذي يؤدي إلى اختلاط المعنى، أو قصوره.

(١) الأدب الإسلامي (حركية الحديث الإذاعي والبعد الرابع للأدب) د/ أحمد بسام ساعي، ص ٦٧

الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

كقوله من مقالته «أنا والنجوم»: «حتى لم يبق لي أنا، وإنما صرت أنا الكون كله!»^(١) فهذه العبارة قد توهم في الأذهان غير ما أراد؛ لذلك حاول استبعاد هذا الوهم بالتعليق في الهامش بقوله: «أي الكون المخلوق لا الخالق، وأعوذ بالله أن أقول بوحدة الوجود التي قال بها أقوام فضلوها وأضلوا»^(٢).

ومعلوم أن الكلام إذا احتاج إلى توضيح وأوهم غير المراد فقد البلاغة وخرج عن الفصاحة. وهذه الهنات القليلة لا تغض من أسلوب الطنطاوي الذي يعد من أنقى وأقوى الأساليب المنشودة من أدباء المسلمين، والمعبرة عن عواطفهم ومشاعرهم وما يطمحون إليه^(٣).



(١) من حديث النفس، علي الطنطاوي، ص ٢١.

(٢) السابق، هامش ص ٢١.

(٣) الأدب الإسلامي «علي الطنطاوي كما يمثل له لي الخيال من خلال كتاباته» د/ محمد أحمد

هيشور، ص ٦٥. العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

الفصل الثالث

مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

حين تمتزج العواطف مع ما بداخل الإنسان من آثار الفطرة، أو من آثار ما قد يحل محل الفطرة من العوارض الطارئة ينشأ الوجدان «الذي هو مزيج من الانفعالات والعواطف الدائرة في محور الفطرة الإنسانية، أو محور العوارض الطارئة عليها.

والأديب الموهوب هو الذي يستطيع أن ينقل ما في وجدانه من المعاني إلى صور يعبر عنها بما يمتلك من ألفاظ، وتراكيب، وصيغ فنية مشحونة بالأحاسيس، والمشاعر، والإيحاءات التي تلائم المتلقي، وتعبّر في الوقت نفسه عما يجده الأديب في نفسه.

على أن هذا الخيال المعبر عن الوجدان من خلال الصور حين ينفلت من إطار الدين والعقل تحت أي عوارض، ويتعد عن واقع الحياة الدينية، أو الاجتماعية، أو الذاتية، أو ما ينبغي أن تكون

عليه هذه الحياة، يسقط في مهاوي الشذوذ، ويستسلم لدواعي الانحراف^(١).

ويمكن التعرف على الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي من خلال أدبه في المباحث الآتية:

المبحث الأول: وجدان الطنطاوي في خطبه.

المبحث الثاني: وجدان الطنطاوي في قصصه.

المبحث الثالث: وجدان الطنطاوي في تراجمه.

المبحث الرابع: وجدان الطنطاوي في مقالاته.



(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٥٦، ٢٥٩.

المبحث الأول

وجدان الطنطاوي في خطبه

إن من يتأمل وجدان الطنطاوي في خطبه يراه صادقاً، منفعلاً بالإسلام في عطائه الشعوري، والتعبيري، والفكري، مما أضفى على صوره، وألفاظه قوة وجمالاً، وإبداعاً وشعوراً كشف الخفايا المجهولة، والأحاسيس المبهمة في صور أسرة، استهوت القلب، وامتكت النفس.

وليس السر في هذا هو جمال الأسلوب، أو قوة العبارة، أو حسن الأداء فحسب، وإن كان لكل ذلك دوره الفاعل في إصابة الهدف، ولكن السر الحقيقي يكمن في تحرر الطنطاوي في خطبه من التكلف، والتصنع، وإرساله نفسه على طبيعتها؛ لتعبر عن أحاسيسها، وعواطفها التي مبعثها الإيمان الصادق، ودافعها الاستجابة لنداء ضميره، وعقيدته الإسلامية في تجاوبها مع أحداث عصره، وأصداء واقع أمته، والتي ألهمت مشاعره، وحركت قلبه، وأفاضت موهبته حتى انثالت خواطره بالألفاظ المعبرة، والمعاني المؤثرة، التي وقعت في قلوب سامعيه؛ لأنها خرجت من قلبه.

ويلمس هذا الصدق الوجداني المؤثر عند الطنطاوي من خلال إيمانه، وانفعاله بما يقول، وكذلك من تناسب ألفاظه ومعانيه لعواطفه

وأحاسيسه، وإن تنوعت العاطفة ما بين الرضا والغضب، فصدق التعبير هو الفيصل في الحالتين، فعاطفة الرضا تبدو من خلال عذوبة ألفاظه، ورقة معانيه، وهدوء عبارته، حين يحاول استمالة القلوب، وتطويع النفوس، وإثارة عواطف الجماهير لحملها على القبول والإقناع.

وتبدو تلك العاطفة واضحة في افتتاحياته ومقدماته لخطبه، والتي كان حريصاً فيها على تقديم ما يستأنس به متلقيه، وما يزيل به وحشته؛ تهيئة لاستقبال موضوعه واستمالة قلبه؛ بذكر حادثة خاصة وقعت له، أو خبر سمعه، أو ملاحظة لاحظها في أثناء عمله.. متوخياً فيها ارتباطها بالموضوع، وتلوينها بلون نفسه، من استبشار، أو مزاح، أو سخرية أو غير ذلك..

وهذا لا يكون إلا من وحي الطبع الصادق، وإلهام الذوق اليقظ^(١).

وذلك كقوله في مقدمة خطبته في تأييد الانفصال:

«وبعد فلقد كدت أثني على القائمين بهذه الثورة، وأذكر لهم أنهم اتبعوا فيها طريق العقل، وسلکوا سبيل الإخلاص، وأنهم ضربوا للناس مثلاً ما سمعنا به من قبل حين نفضوا أيديهم من الحكم، وعادوا إلى ما كانوا عليه من قبل، خاضوا المعركة، وعفوا عن الغنائم...»^(٢).

(١) تذكرة الدعاة. البهي الخولي، ص ٢٨١.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي، ٨٤/٦.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

فهدوء العبارة هنا ورقة المعاني، وعذوبة الألفاظ عكست . كما هو واضح . عاطفة الرضا والإعجاب بما قام به الضباط في ثورتهم، كما يلاحظ انفعال الطنطاوي، وعاطفته الغاضبة المتجاوبة مع وجهته الإسلامية من خلال قوة ألفاظه، وشدة وقعها، وقرعها للسمع، وتهويل معانيها، وتلاحق عباراتها، وذلك حين يريد التنفير من شيء، أو نقده، أو تغييره، والثورة عليه.

من ذلك تعبيره الساخط، وعاطفته الغاضبة على المحتل البغيض، وأتمته المترامية في مواجهته. يقول من خطبة «أسبوع الجزائر»:

«وتعود جيوش الاستعمار معقوداً بنواصيها العار؛ لأنها ظفرت بالأطفال والنساء، وأصلتهم نار المدافع والرشاشات، إنهم يحون القرى محواً، ويبيدون أهلها إبادة...»^(١).

وقوله: «الجزائر تناديكم، المجاهد الذي نفذت ذخيرته يناديكم، المرأة التي أرادوها على الخنا... تناديكم»^(٢).

وقوله: «فهل سمعتم بأمة تعين عدوها على نفسها؟ هل سمعتم بأمة تنام على دوي المدافع؟ هل سمعتم بأمة تغني على أنين المحتضرين من أبنائها، وترقص على قبور شهدائها»^(٣).

(١) «أسبوع الجزائر» هتاف المجد، ص ٢٢١.

(٢) السابق، ص ٢٢٦.

(٣) السابق، ص ٢٢٦.

فهذه الألفاظ الصاخبة، والعبارات الغاضبة بما تحمله من دلالات ومفارقات عجيبة، تنطق بالأسى، والحزن، وتجسد المرارة، واللوعة، وتعكس الاستنكار والعتاب، اللذين يعتلمان في صدره، ويستوليان على وجدانه، ويحملانه على إثارة الناس لأحاسيسه، وتجاوبهم معه في انفعالاته؛ ليحرك همتهم، ويثير غيرتهم بهذا الأسلوب الاستفاري القوي.

ومن ذلك تظهر مهارة الطنطاوي الخطابية، وعاطفته القوية المستجيبة لأحاسيسه الإسلامية في استعمال كل لفظ في موضعه المناسب.

فاستعمل الجزل منها - أي: اللفظ المتين على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع - في التخويف والتحويل، والتقريع ووصف المخازي والأهوال.

والرقيق منها أي اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس في موضعه في المدح واستعطاف النفوس، واستجلاب المودة، واستمالة القلوب مستلهماً في ذلك الأداء القرآني في إلباسه لكل معنى ما يناسبه من الألفاظ^(١).

كما يبدو إسلامية وجدان الطنطاوي في خطبه من خلال اتزان أفكاره، وأسانيبه، والتزامها بمنهج الإسلام في تقبيح القبيح، وتحسين الحسن.

بالإضافة إلى أنه كان يتكلم عن إيمان عميق، ووجدان صادق لوّن ألفاظه وصوّره بلون نفسه في توازن واعتدال؛ ولذلك لم يسرف في

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، ج ١، ص ١٥١، ط المكتبة العصرية، بيروت

المدح ولم يتزيد في الهجوم، ذلك الذي ينفر من الخطيب، ويضائل من مصداقيته.

ومن هنا كانت كلمات الطنطاوي حية تستمد قوتها من صدقها، وشدة إيمانه بها.

كما كان لسيرة الطنطاوي الحسنة وما عرف به من جرأة وشجاعة في إنكار المنكر دعماً قوياً لتأثير كلمته ومصداقيتها في النفوس، بالإضافة إلى أن استجابة الطنطاوي الوجدانية لإسلامه في اتصاله بالناس جعلته قريباً جداً منهم، لا يكلمهم من برج عاجي كما يفعل بعض الخطباء، وإنما ينزل إليهم ويلمس جراحهم، ويفرح لأفراحهم، فترى لكلماته أثراً بينهم، قل أن يصل إليه خطيب أو متحدث. فهو يخاطب الحاكم، والعالم، والأديب، والأمي، والصغير، والكبير، والرجل، والمرأة، ومن ثم فهو خطيب الشعب يستلهم موضوعاته من الشعب بهدف النهوض والارتقاء به^(١).

وإذا كان الخطيب. كما يقول الجاحظ. مثل الطنطاوي يريد إصلاح شأن الأمة ومصلحة حال الخاصة، وكان ممن يعمم ولا يخص، وينصح ولا يغش، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة، شَنِئاً لأهل الاختلاف، جمعت له الحظوظ من أقطارها، وسيقت إليه القلوب بأزمته، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته، وجبلت على تصويب إرادته..^(٢).

(١) الأدب الإسلامي «الشيخ علي الطنطاوي الخطيب الأديب، عبد الباسط أحمد، ص ٩٨ العددان

(٣٥-٣٤) ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

(٢) البيان والتبيين. الجاحظ ٢/٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

المبحث الثاني

وجدان الطنطاوي في قصصه

أما وجدان الطنطاوي في قصصه، فتبدو ملامحه الإسلامية في تصوير شخصياته، ورسم أبعادها الإنسانية والفكرية حين تسعد بالإسلام، وتحيا بقيمه، أو تشقى بالانحراف وتنكسر بذله.

ففي قصة «قضية سمرقند» نلاحظ وجدان الطنطاوي الإسلامي الذي أبرز الحالة النفسية للكهنة، وما تضمنه من كيد للمسلمين، وتخطيط لإضعافهم.

وكذا في تصويره لانفعالات السمرقندي تجاه حاكم المسلمين بعدما رأى من اتساع ملكه وعظمة سلطانه. فقال:

«وأقبل على أول إنسان لقيه يريد أن يسأله عن القصر، فاعترته هيبة شديدة، وخاف من مواجهة الرجل الذي يحكم نصف الأرض، والذي يبلغ مُلك (شاهنشاه العظيم) ولاية واحدة من ولاياته، يحكمها أمير من أمرائه... وذكر كيف كانت تتصدّع الأفئدة خوفاً من لقاء كسرى، وتقف الملوك على بابه، وكيف كان يقتل على الظنة، ويأمر بضرب عنق الرجل يقول كلمة لا تعجبه، أو يأتيه في ساعة يكون فيها لقس النفس، ضيق الصدر! وتلمّس عنقه، وتخيّله من الفزع مضروباً.

وتصور رأسه طائراً عن جسده فطارت معه حماسته، وشجاعته، وكره لقاء الخليفة، وفكر في العودة إلى بلده سالماً قبل أن يحقق به مصاب لا ينفعه معه مجد يناله، ولا وطن يحرّره ولا كاهن يرضيه...

وغرق في مخاوفه وأفكاره وجعل يسير على غير هدى، وكلما مرّ على قصر من قصور دمشق، ورأى بهاءه، وعظمته، ظنه قصر الخليفة، فخفق قلبه، واضطرب...»^(١).

فوجدان الطنطاوي المنفعل بالإسلام بدا في إبراز هذه المخاوف التي تجسدت للسمرقندي، والتي عكست وضع المسلمين الحضاري، وما له من وقع وهيبة ومخاوف في قلوب أعدائهم.

وكذا بدا هذا الوجدان في إظهار شخصية المسلم - الذي دلّ السمرقندي على دار الخليفة - في حلمه وعلمه، وتعاونه على الخير، وتلطفه في تبليغ الدعوة والهداية إلى طريق الله حتى أسلم الرجل على يديه، وظل يمدّه من الإسلام بما يمكنه في قلبه.

ثم في تصويره لشخصية الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمته الله في تواضعه، وعدله، وزهده، ورفقه، وسعادة الناس به...

وكذا في إبرازه إعجاب السمرقندي بالإسلام وجمال تعاليمه - بعدما تعرّف عليه - قال مصوراً هذا الإعجاب:

«... وتبعه يفكر في جمال هذا الدين، وسموه، وقد زالت الغشاوة

(١) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص ٧٤ - ٧٥.

عن عينيه، فأدرك الآن سر هذه الفتوحات، وهذه القوة التي لم يقم لها شيء. أين هذه الديانة السافرة الواضحة التي تجعل كل واحد من أتباعها كاهناً لها، ورجل دين... من تلك الديانة المجهولة الخفية... أين؟^(١).

ويبدو وجدان الطنطاوي بملامحه الإسلامية في إبرازه شخصية القاضي المسلم في تواضع هيئته، وكمال عدالته، ونفاذ كلمته التي خرجت انتصاراً للحق الذي كان لأعدائه وأعداء أمته في تلك القضية؛ إذ إنه يدور مع الحق حيث دار، ويستسلم للإسلام بما حكم وعلى من حكم.

وفي إبرازه ما للعدل من أثر في النفوس، وفتح للقلوب، حيث فتحت (سمرقند) ودخلت في الإسلام ببركة العدل لا بقوة السيف.

وفي قصة «تاج كسرى» يلاحظ إسلامية وجدان الطنطاوي من خلال ما رسمه لأشخاصه من أبعاد وملامح.

فهذا سُرَاقَةُ رضي الله عنه قبل إسلامه بملاحمه؛ حيث يدفعه الطمع والغرور. وهو الفارس القوي. لمطاردة النبي ﷺ وصاحبه، واللاحق بهما؛ لنيل الجائزة التي رصدتها قريش لمن يأتي بهما، فما كاد أن يصل إليهما حتى أحس بقوة هائلة تمنعه من الوصول إليهما، فركبته المخاوف، ورجع من حيث أتى مكتفياً بوعد النبي ﷺ.

(١) قصص من التاريخ، ص ٧٦.

له بلبس سوارى كسرى، هذا الوعد بالذات وفي هذه الظروف الحالكة كان له وقعه على نفس سراقه، وبُعد في وجدان الطنطاوي، فعبّر عنه وأبرزه بقوله:

«ورجع سراقه، وقد اجتمعت عليه المتناقضات من الأفكار والعواطف، وهاج في نفسه الطمع، والخوف، والأمل، واليأس، فجعل يقهقه في هذه البادية ويصرخ كمن به جنّة! ولم لا يجنّ؟! وقد كان يأمل أن ينال الغنى، ففاته ما كان يأمل، وقد فتحت فاهها لتبتلع الأرض، فنجاً، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد، وخرق النار، وخوض البحار.

ماذا؟! أيعدني محمد سوارى كسرى.. شاهنشاه ملك الملوك... وهو يقطع الصحراء هارباً من قومه مخفياً في غار ليس معه إلا رجل واحد؟

أيتلّع هذا الغار ملك كسرى، وجبروته، وجلاله؟

أنتصر هذه الصحراء على ملك كسرى وجنّاته وأنهاره؟! أيغلب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها، ورمت عن قوس واحدة ما نالت من كسرى منالاً، على أنها لن تجتمع العرب أبداً، ومن ذا الذي يجمع مضر وقحطان، وبكرًا وتغلب، وعيساً وذبيان؟! وأين يذهب ما بينهما من دماء؟

أما إن قريشاً كانت أدري بصاحبها حين قالت عنه ما قالت، فما أراه ينجو من قريش، ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى..

وإنه والله ما يريد إلا أن يتركنا -نحن أيضاً- مجانين! وانطلق يقهقه ويصرخ^(١).

ويلاحظ هنا أن الطنطاوي أجاد في إبراز تلك المشاعر والأحاسيس التي تولدت في نفسه من خلال هذا الوعد، كما أوضحت لنا بعد هذا الوعد، وكثرة عوائقه؛ لتظهر لنا بعد ذلك عظمة تحقيقه، وصدق نبينا ﷺ في الإخبار عنه.

كما بدا وجدان الطنطاوي الإسلامي في إبراز شخصية النبي ﷺ في حسن توكله، وكمال إيمانه بالله، وحب أبي بكر رضي الله عنه له وشدة خوفه عليه. وكذا في استجابة عمر رضي الله عنه لرغبة النبي ﷺ وتصديق نبوءته بإلباس سراقة رضي الله عنه سوارى كسرى بعد فتح فارس.

في قصة «بنات العرب في إسرائيل» يتضح وجدان الطنطاوي في تجاوبه مع الإسلام في رسم شخصياته؛ حيث نراه نكر شخصياته؛ لتكون شخصيات نموذجية غير مسماة؛ لتفيد الكثرة والعموم؛ حيث إن الفتاة ليست وحدها التي تعرضت لذلك، والشاب الفلسطيني ليس وحده الذي تخلى عن قضيته وهرب من مسؤوليته خوفاً على حياته.

فالفلسطيني في هذه القصة شاب مثقف تضطرم نار الشهوة في صدره، ونار الحقد على اليهود في قلبه، لكنه ضعيف النفس، جبان القلب.

(١) قصص من التاريخ، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

والفتاة.. مسلمة، عفيفة، جميلة، أُجبرت على الرذيلة والهوان، بعدما فقدت أهلها، وهي تتمنى الخلاص بأي وسيلة، وترغب في الطهر والعفاف.

والأب.. رجل مسلم، غيور، فضّل الموت على الذلّة والعار.

واليهود.. قساة القلوب، عُدّمو الإنسانية، وحُرموا الشفقة، حتى تاجروا بأعراض فتياتنا، وقتلوا نساءنا وأطفالنا، واتخذوا كل وسيلة توصّلهم إلى أغراضهم الدنيئة.

وفي قصة «طبق الأصل» يلمح توجّه الطنطاوي الإسلامي، ووجدانه المتّزن فيها من خلال سخريته بالتبرج، والمنخدعين به، وتقبيحه للحرية غير المنضبطة، ولعواقبها الوخيمة.

فهو يصوّر في تلك القصة رجال الشرطة متكاسلين، عقولهم قاصرة، وهمومهم متدنية؛ ليكرّه إلينا هذا السلوك الشائن.

وكذا في تصويره الفتاة المتبرّجة، وما تثيره في النفوس من رغبات آثمة، وما تتعرّض له من أحداث قاصمة... يقول عن تلك الفتاة بعدما تعرّضت لمضايقة شاب وقح، فذهبت تشكو إلى الشرطة:

«ووقفت الفتاة تصوّب فيهم نظرات متعالية، ثم قالت عابسة، زاوية ما بين عينيها، ضامة شفّتين، كذر الورد على فم لا يتسع للكلمات، ولا يصلح إلا للقبل: أمام باب المخفر شاب وقح، لا يزال يلاحقني كلما مشيت في الطريق، فأرجو سؤاله عما يريد مني!

وعرفوا الذي يريده منها، وكانوا في قرارات نفوسهم يريدون مثله، وكانوا قوماً همجاً متأخرين، ذوي عقول قديمة رجعية، لا يفهمون من تكشف البنات إلا ذلك المعنى العتيق جداً... لا يعلمون أن الدنيا تقدّمت.

وأن الفتاة تتكشف على الساحل للسياحة، وفي المدرسة للرياضة، وفي الطريق، وفي الترام للصحة وحدها فقط... لا غير»^(١).

وكما سخر الطنطاوي بهذه الانحرافات والسلوكيات، رأيناه يسخر بسلوك ذلك الشاب الذي كان يتعقب هذه الفتاة، فيقول:

«وكان مخنّثاً، خليعاً، تحسّ إذا نظرت إليه أن رجولته كورقة النقد المزوّرة، لها لونها ونقشها، ولكن ليس لها قيمتها، ولا تشتري لصاحبها إلا مكاناً في السجن، كما أن رجولة هذا الشاب لا تكسبه إلا موضعاً في جهنم...»^(٢).

كذلك يبدو هذا الوجدان بمظهره الإسلامي في تقبيح تصرفات وأفكار ذلك الأب الجشع المنخدع بشعارات العصر الزائفة، والأخ العايب وراء شهواته.

كذلك بدت إسلامية وجدان الطنطاوي في إبرازه النهاية المفجعة لهؤلاء المنحرفين، والتي جاءت وفق القانون الإلهي في قوله تعالى:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾^(٣).

(١) قصص من الحياة، ص ٧٠.

(٢) السابق، ص ٧١.

(٣) سورة النحل، آية ٢٤.

فالطنطاوي هنا وإن تناول تلك الرؤى الشاذة لهذه الشخصيات عن الإسلام، فإنما تناولها ليرينا من خلال الواقع الحيوي نهاية مثل تلك الرؤى، لا ليبشّر بها، أو يحضّ عليها.

مما يؤكد أن الأديب الإسلامي ليس مُلزماً بنهج مباشر، أو غيره، وإنما تميّزه الفني، هو الذي يتجه به الوجهة المناسبة التي قد يختلف فيها عن غيره مع استقامته في الانطلاق من الوجدان الإسلامي^(١).

وفي (قصص الأطفال) نرى الطنطاوي مستجيباً لوجدانه الإسلامي، في تقبيحه للشرّ والباطل والتخويف من عواقبه، وتمجيده للقيم الإسلامية التي اتسمت بها شخصياته، وسعدت بعواقبها الحسنة وحققت منجزاتها الخيرة.

لذلك حرص على إبراز شخصية (ابن هبيرة) بملاحظتها الإسلامية وما تحلّى به من صبر، وتواضع، وأمانة، وإخلاص في مراحل حياته المختلفة، طالباً وعالمياً، غنياً وفقيراً، وإن كانت تتنازعه -لبشريته- وساوس الشيطان، وتتناوشه أهواء النفس، فهو في النهاية دائماً المسلم الذي ينتصر للفضيلة، ويستجيب لدينه، وقيمه، وضميره؛ لذلك كان له من الله العون، والتوفيق، والرزق الحسن.

كما بدت شخصية الأخ الكبير غاية في الأمانة والوفاء، وحفظ العهد؛ لذلك كان له عند الله حسن الجزاء، ومن أخيه الدعاء والحب والذكر الحسن.

(١) انظر في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٤٠.

لكن لو أتى الكاتب بكل شخصياته على هذا النحو من الطهر والصفاء؛ لترددنا في قبولها! فالحياة لا تصفو على حال، ولا تخلو من انحرافات النفوس.

لذلك رأينا شخصية البائع الجشع الذي ينتهز الفرص ويستغل المحتاج.

والأخ الصغير: الذي كان ضيق الأفق ضعيف الإدراك - فظن بأخيه السوء - قبل أن يخبر بأمره - ووقع في شرك الشيطان وانقاد لوساوسه فيما حاكه حول أخيه من اتهامات وشكوك رغم أن ما وقع معه كان ينبغي أن ينفي عنه هذه الظنون ويطرد عنه تلك الوساس!

وفي قصة «التاجر القائد» نرى شخصية القائد المتغطرس الذي يستعين بسلطانه على الباطل.

وشخصية التاجر المسكين وصديقه الأمين الذي أخذ بيده إلى من يوصله لحقه ويفرج عنه كربته.

وشخصية الخياط... ذلك المسلم الغيور على أعراض المسلمين، التأثير على الباطل، المتحمل في إنكاره المنكر الضرب والتعذيب، فكافأه الله لإخلاصه بنفاد كلمته، وتصديق شهادته، وتلبية رغبته بأمر الحاكم المسلم الذي أبصر غيرته وصدق أمانته.

وشخصية الحاكم المسلم الذي ألجم الظلم ونشر العدل؛ لأنه لا يجابي في الحق أحدا. حتى إنه قتل أحد قواده لزيغته وانحرافه، وقرب أحد العامة لاستقامته واعتداله.

فالوجدان الإسلامي للطنطاوي هو الذي أسرع بهذه المقابلات؛ ليقوي الخير في النفوس ويرغب فيه، ويكره الظلم والغرور ويحذر منه.

ومن كل هذا يتضح لنا وجدان الطنطاوي في قصصه، بمظهره الإسلامي، والذي نجح من خلاله أن يبرز لنا مشاعره المحبة للقيم الإسلامية، ويولد فينا عواطف الميل والرغبة الشديدة في التحلي بهذه القيم والتمسك بها.

واستطاع أن يستثير فينا بوجدانه الإسلامي المعبر عنه بصورة وألفاظه؛ مشاعر السخط والبغض، والنفور والكراهية للسلوكيات المنحرفة والعادات الشاذة، والأفكار الباطلة التي عرض لها في قصصه.

واتضح من خلال هذه القصص توظيف الوجدان بمظهره الإسلامي في الكشف عن خفايا النفوس ومشاعرها تجاه ما تواجهه من أحداث؛ ليتسنى للكاتب بذلك تهيئة النفوس إلى التوجه نحو ما يريد الكشف عنه، والإحساس به في جلاء ووضوح، ولعل هذا هو غاية ما يطلب من الوجدان الإسلامي في تفاعله مع الحياة من خلال الأدب.



المبحث الثالث

وجدان الطنطاوي في تراجمه

(أ) تراجم الطنطاوي الشخصية الذاتية:

يظهر ملامح الوجدان الإسلامي في ترجمة الطنطاوي الشخصية لنفسه من خلال مقصده منها وتناوله لها.

حيث كان ينشد بذكرياته ارتقاء الفكر ومعرفة سبل السعادة للفرد والمجتمع فتناولها برؤية إسلامية، عرضت الفضائل وأشادت بها، وقبحت الرذائل وبينت خطرهما؛ ليحقق من ورائها رؤية إسلامية تستضيء بها أمته في سيرها الطويل^(١).

لذلك نراه في ذكرياته يعرض أحاسيسه ويظهر عواطفه نحو قضايا الحياة، وما استفاده منها بصدق وصراحة. من ذلك قوله في تلخيص تجربة عمره وما استفاده منها:

«فما الذي استفدته من عمري؟! طلبت المجد الأدبي وسعيت له سعيه، وأذهبت في المطالعة حدة بصري، وملأت بها ساعات عمري،

(١) بين النقد والأدب، د/ محمد رجب البيومي، ص ٢٠٢، الطبعة الأولى ١٩٩٧، المطبعة الفنية.

وصرمت الليالي الطوال أقرأ وأطالع.. حتى لقد قرأت وأنا طالب كتباً،
من أدباء اليوم من لم يفتحها مرة واحدة؛ لينظر فيها.

وكنت أرجو أن أكون خطيباً يهز المنابر، وكاتباً يمشي بآثاره
البريد، وكنت أحسب ذلك غاية المنى وأقصى المطالب، فلما نلتها أو
نلت بعضه زهدت فيه وذهبت مني حلاوته، ولم أعد أجد فيه ما يشتهي
ويتمنى!.

وما المجد الأدبي؟ أهو أن يذكرك الناس في كل مكان، وأن
يتسابقوا إلى قراءة ما تكتب وسماع ما تذيع، وأن تتوارد عليك كتب
الإعجاب، وتقام لك حفلات التكريم؟ لقد رأيت ذلك كله! فهل تحبون
أن أقول لكم ماذا رأيت فيه؟

سراب قبض الريح! أغلق يدك على الريح ثم افتحها لا تلق فيها
شيئاً!.

لا.. والله ما أقول هذا كلام أديب يتخيل! ولكن - وأحلف لكم
لتصدقوا- ما أقول إلا الحقيقة التي أشعر بها. أنا من خمسين سنة أعلو
هذه المنابر، وأحتل صدور المجلات والصحف، وأنا أكلّم الناس في
الإذاعة، ويسمعونني ويروني في الرائي من يوم جاءنا الرائي. ولطالما
خطبت في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وإندونيسيا وكثير
من بلاد أوروبا خطباً زلزلت القلوب، ومحاضرات شغلت الناس، وكتبت
مقالات كانت أحاديث مجالسهم، ولطالما مرت أيام كان اسمي فيها
على كل لسان في بلدي، وفي كل بلد عشت فيه أو وصلت إليه مقالاتي!.

وسمعت تصنيف الإعجاب، وتلقيت خطب الثناء في حفلات التكريم، وقرأت في الكلام عني، ولي، وعلي مقالات ورسائل. ودرّس أدبي ناقدون كبار، ودرّس ما كتبت، وما قالوا عني في المدارس. وترجم كثير منه إلى أوسع لغتين انتشاراً في الدنيا الإنكليزية والأردية، وإلى الفارسية والفرنسية! إي والله! فما الذي بقي في يدي من ذلك كله؟ لا شيء، صدقوني إن قلت لكم: لا شيء! وإني إن لم يكتب لي بعض الثواب من الله على بعض هذا أخرج صفر اليدين.

إنني أقف في مطلع العام لأحاسب الحياة على ما أعطتني، وعلى ما أخذت مني، فأجد أنها أخذت مني عمري الذي هو رأسمالي! فإن لم أخرج من هذا العمر بعمل صالح، ومغفرة من الله أكن قد خسرت كل شيء.

إن كل ما في الدنيا يذهب إن ذهبت، لا يبقى لي إلا ما قدمت لآخرتي.

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾ (١).

فالطنطاوي يعرض علينا تجربته في الحياة وقد انكشفت له حقيقتها وزيفها وخداها؛ ليعلمنا أنه لا نفع فيها إلا بما كان لله، ولن يبقى للمرء منها إلا ما قدم لآخرته، وأن السعادة الحقيقية في الإيمان والعمل الصالح.

وهذه الرؤية التي آمن بها وأدركها من أعماقه واستقرت في وجدانه أعطاه أبعاداً جديدة أكدها، وقواها من خلال استشاده بسورة العصر التي تشير إلى هذا المعنى وتوضح أبعاده.

وهي أيضاً لمحة من خواطره الكثيرة في ذكرياته التي بدا فيها وجدانه المنفعل بالإسلام وإيمانه الصادق بما يقول عن واقعه وتجاربه، حتى لا يستطيع القارئ إلا أن يستشعر هذه الحقائق التي تكمن في أعماقه الفطرية، ولتتضاءل بذلك أمامه متع الحياة ويتوجه لعمل ما ينفعه في الآخرة.

فالوجدان في ذكريات الطنطاوي عنصر مهم وفاعل ولد من خلاله في نفوسنا الإحساس العميق بالمعاني الإسلامية السامية، ودلها على سبيل سعادتها من خلال واقع حي لتجاربه الثرية وخواطره الصادقة حول ما عرض له في حياته.

كما استخدمه كوسيلة قوية للتنفير من سلوكيات خاطئة، وأمراض اجتماعية، وفكرية، وعقدية، مستوطنة تحتاج إلى استئصالها من الجذور.

(ب) تراجع الطنطاوي الذاتية الغيرية:

تبدو مظاهر إسلامية وجدان الطنطاوي في تراجمه الذاتية الكلية، من خلال شعورنا بحبه للصحابة. رضوان الله عليهم. وتعظيمه لقدرهم في تناول يملؤه الإعجاب والتقدير.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

يقول في مقدمه كتابه عن أبي بكر رضي الله عنه :

«ولقد قلت في مقدمة (أخبار عمر) : إنني قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين، وغير المسلمين، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره، ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها، فهو عظيم الفكر والأثر والخلق والبيان.

وأقول اليوم: إن أبا بكر كان أعظم من عمر في كل شيء. حتى في القوة التي كانت شعار عمر، وكانت عنوان شخصيته، فإن أبا بكر الضعيف الجسد، الرقيق العود، لما بارى عمر في القوة كان هو الأقوى.

إن عمر عظيم لكن لا يعدل أبا بكرًا.

إن أبا بكر هو أعظم العظماء بعد الأنبياء. لقد أقر عمر بذلك بلسانه على منبر رسول الله ﷺ وتاريخه كله إقرارات بذلك، ولا يعرف الفضل إلا ذووه ﷺ.

وحسبكم أن أبا بكر كان أسبق الرجال إلى الإسلام، وأنه كان أحبهم إلى رسول الله، كما خبر بذلك ﷺ.

الفريق المتماسك في الرياضة الجماعية يعمل معاً الواحد للكل، والكل للواحد، تجد فيه نخبة من الأبطال لا تستطيع أن تحكم أيهم أقوى، إلا إن تنازل في مباراة ودية اثنان منهم.

كذلك كان الصحابة الكرام ﷺ وأرضاهم - وكان الخلفاء الراشدون والعشرة المبشرون خيار الصحابة، وكان الشيخان أبو بكر وعمر.. كما كانت خديجة وعلي خيار الخيار وأبطال الفريق.

ولقد تواجه أبو بكر وعمر لا مواجهة المتباريين، فما كانا يختلفان، ولا في المزاج، بل مواجهة المتنافسين على درجة الامتياز، في السباق إلى رضا الله، تواجهها يوم قبض رسول الله ﷺ ويوم السقيفة، ويوم بعث جيش أسامة، ويوم الردة، وكلها نوازل نزلت بالمسلمين، وفي النوازل الثقال توزن أقدار الرجال! فكان أبو بكر رضي الله عنه وعن عمر - أثبت في الشدائد، وأشجع في اقتحام الأهوال، وأكثر علماً بالله، وكان هو الأرجح في الميزان...»^(١).

فهذا الشعور الراضي الذي دفع الطنطاوي لإبراز عظمة الصحابة - رضوان الله عليهم - والإعجاب بهم، هو انعكاس لوجدان الطنطاوي الإسلامي الذي صبغ صيغه التعبيرية بهذه المعاني الروحية التي منحت الألفاظ الحياة وأثارت فيها النبض والحركة^(٢).

وهذا مظهر من مظاهر إسلامية وجدان الطنطاوي في تناول تراجمه الغيرية، والدال على امتلاء نفسه بعظمة هؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم - وإفاضته من هذا الإحساس علينا.

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص ٩ - ١٠.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢١٤.

ويبدو وجدان الطنطاوي المنفعل بالإسلام في تراجمه من خلال استلهاماته من المعاني القرآنية وتاريخ المسلمين ما يستضيء به في عرض آرائه وطرح قضاياها.

من ذلك ما ذكره تحت عنوان «عمر مع غير المسلمين» يقول:

«اليهود: اختلف المؤرخون في يهود المدينة هل هم عرب تهودوا، أم هم يهود تعربوا والذي يغلب على ظني أنهم يهود: لأن الله عز وجل كان يدعوهم (يابني إسرائيل) وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام وأولاده اليهود؛ ولأن المتتبع لما وصف القرآن من أخلاقهم، والناظر في تاريخهم، يرى الاختلاف البين بين أخلاقهم وأخلاق العرب، وأدل الدلائل على هذا الاختلاف أن العرب في مكة لما حاربوا الإسلام حاربوه من أمام، فعل الرجل الشريف، وهؤلاء حاربوه بالدس والمكر، فعل المحتال المخادع الضعيف، وهم علّموا العرب النفاق، وما كان من قريش منافقون، إنما نجم النفاق في المدينة بعد الهجرة من تأثير اليهود.

وكان تاريخهم مع المسلمين تاريخ الغدر والخيانة والعدوان منهم، والصفح والصدق والإنصاف من المسلمين، واستمر ذلك حتى أنقذ الله المدينة منهم واجتمعت بقيتهم في خيبر»^(١).

فالطنطاوي كما رأينا يستلهم رأيه من معطيات القرآن الكريم، والواقع التاريخي للمسلمين مع غيرهم، مما يقوي حجته، ويرجح رأيه، ويعكس انفعال وجدانه بالقرآن الكريم والتاريخ الإسلامي المجيد.

(١) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، للطنطاويين، ص ١٦٢.

ويلاحظ إسلامية وجدان الطنطاوي في تراجمه من خلال تفسيره لما يصدر من شخصياته، تفسيراً روحياً، يرفع فيه القيم، ويمجد البطولة، وينفي فيه ما توهمه ظاهر الأخبار من نقص أو انحراف يتعارض مع معطيات الشخصية التاريخية ومكانتها في النفوس.

من ذلك فهم الطنطاوي لدلالة هذا الحدث، وتعليقه عليه، بما يتوافق مع طبيعة الشخصية العمرية. يقول:

«وقال أسلم: مرّ بي عمر أنا وعاصم بن عمر نتغنى غناء النصب، فقال: أعيدا فأعدنا، فقال: مثلكما مثل حماري العبادي، قال: أي حماريك أشرك؟ قال: هذا ثم هذا».

يقول هذا مماًزحاً^(١).

فالطنطاوي عقب على قول عمر رضي الله عنه بقوله: «يقول هذا مماًزحاً» ليصرف بذلك الوهم الذي قد يؤدي إليه ظاهر الخبر من أن عمر رضي الله عنه سب أسلم وعاصم وأهانهما دون داع، وهذا يتنافى مع ما أثر عن شخصية عمر رضي الله عنه فلا بد أن يخرج ذلك منه على سبيل المزاح.

وأوضح من هذا تناول الطنطاوي لدلالة هذا الحدث الذي حرص فيه على إبراز الصورة المثلى للصحابة رضي الله عنهم حفاظاً على تعظيم القدوة، وتمجيد الرموز التي لو اهتزت صورتها في الأذهان؛ لزلزلت ضعاف النفوس، وأوجدت لهم مدخلاً للتساهل والانحراف.

(١) السابق، ص ٢٩٩.

يقول الطنطاوي تحت عنوان «يقيم الحد على ولده»:

«عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال يوماً وقد ذكر عمر فترحم عليه - ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ. وأبي بكر رضي الله عنه أخوف من عمر! لا يبالي على من وقع الحق؛ على ولد أو والد.

ثم قال: والله إنني لمنزلي في مصر إذ أتاني آت فقال: هذا عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة^(١) يستأذنان عليك. فقلت: يدخلان. فدخلا وهما منكسران فقالا: أقم علينا حد الله، فإننا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا، فزجرتهما وطردتهما.

فقال عبد الرحمن: إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه. فعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد. ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية في الدار فحلق رأسه، وكانوا يحلقون مع الحدود! والله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر إلى العاصي بن العاصي.

عجبت لك يا ابن العاص، وجرأتك علي، وخلافك عهدي فما أراني إلا عازلك، تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد

(١) أبوسروعة هو: عقبة بن الحارث، أسلم وروى عن الرسول ﷺ وأخرج له البخاري ثلاثة أحاديث (الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني. تحقيق علي محمد البجاوي ٤/ ٥١٩، ط ١، دار الجيل. بيروت ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م. أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، للطنطاويين، ص ١٦٣.

عرفت أن هذا يخالفني، إنما عبد الرحمن رجل من رعيته تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين! وقد عرفت أنه لاهوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب عليه، فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث به في عبادة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع!.

فبعثت به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر كتاباً أعذر فيه أنني ضربته في صحن داري. وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إنني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم.

وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر، فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عبادة، ولا يستطيع المشي من سوء مركبه.

فقال: يا عبد الرحمن فعلت وفعلت!؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف.

وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد فلم يلتفت إليه، فجعل عبد الرحمن يصيح: إني مريض، وأنت قاتلي! فضربه ثانية وحبسه. فمرض ثم مات. رحمه الله^(١).

وبعد أن نقل الطنطاوي هذا الخبر نراه علق عليه في الهامش بما ينبغي أن نفهمه لا ما قد يوهمه ظاهر الخبر، وبما يثبت ما يليق بمقام الصحابة. رضوان الله عليهم. أجمعين. فيقول:

(١) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، للطنطاويين، ص ٢٠٠-٢٠١، والخبر في تاريخ بغداد لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ٥/ ٤٥٥، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

«لما ضربه وأرسله لبث شهراً صحيحاً ثم أصابه قدره، فيحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر ولم يمّت من جلده، ثم إنه لا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر، وإنما شرب النبيذ متأولاً يظن أن الشرب منه لا يسكر. وكذلك أبو سروعة وهو من أهل بدر، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد، وقد كان يكفّيهما مجرد الندم على التفريط، غير أنهما غضبا لله سبحانه وتعالى على أنفسهما المفرطة فأسلماها إلى إقامة الحد. وأما كون عمر ضربه مرة ثانية، فليس ذلك حداً، وإنما ضربه غضباً وتأديباً، وإلا فالحد لا يكرر. وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدؤوا فيه وأعادوا، فتارة يجعلونه مضروباً على شرب الخمر، وتارة على الزنا، ويذكرون كلاماً مرققاً يبيكي العوام لا يجوز أن يصدر عن مثل عمر رضي الله عنه»^(١).

والطنطاوي صادق مع نفسه، مستجيب لوجدانه الإسلامي في دفع كل شبهة تنشأ عن فهم خاطئ، أو نفس مغرضة.

من ذلك رؤيته الكاشفة لحقيقة عزل عمر لخالد رضي الله عنه، والتي تأولها المغرضون بتفسيرات أبانت عن جهلهم بعظمة أولئك الرجال.

يقول الطنطاوي عن عمر رضي الله عنه :

«... ثم التفت إلى الشام فعالج شؤونها، ورتب أمورها، وولى أبا عبيدة قيادة جيوشها، ونحى خالدًا. لقد كان خالد نابغة الحروب،

(١) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، ص ٣٠١.

وأحد القواد الذين أدهشوا التاريخ، والذين هم فلتة من فلتات الزمان لا يظهر الواحد منهم إلا في القرون الطويلة، الإسكندر، وهنريكل، وخالد، وابن القاسم، وقتيبة، وطارق، ونابليون! بل ربما كان خالد أعظمهم جميعاً، بل ليس في ذلك شك لمن درس خالدًا وعرفه، وقليل هم الذين عرفوا خالدًا.

فلماذا يعزله عمر؟

هذا ما خاضت فيه ألسنة تنطق بغير المنطق، وتهرف بما لا تعرف، وتحركت فيه أقلام تتبع الهوى وتخبط في ظلمات الجهل...

لا، لم يعزله عن موجدة، ولا خيانة، ولا بغض، ولا انتقام! ولقد كان عمر يحب خالدًا ويكرمه، وكان عارفًا بمنزلته، وعالما بمقدرته، وإنما ضحى به في سبيل الإسلام^(١).

وهذا تفسير أحسن بغرابته، ولكنه حين كشف ما وراءه بالأدلة الواضحة أزال هذه الغرابة، وأقنعنا بأنه الحق والصواب، حيث قال:

«ولقد يبدو هذا القول غريباً ولكنه الصواب! إن الإسلام يقوم على مبدأ التوحيد، على اعتقاد أن الله هو النافع الضار، وأن كل شيء بيده، وأنه لا يعطي غيره، ولا يمنع سواه، فخاف أن يتكل المسلمون على خالد، أو يعتقدوا أنهم ينصرون به، فيفتنوا ويضلوا، وإذا غاب عنهم غلبوا وذلوا، فعزله!».

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص ٢٧.

ولقد صرح عمر نفسه بهذا في مرسوم بعث به إلى الأمصار حين قال: «إني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا عن خيانه، ولكن فتنوا به! فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة».

ومن استعظم عزل خالد، وعده كسرًا لخاطره، وججوداً لفضله وعقوقاً، ورآه شر جزاء له على أعماله، فإنما رأى ذلك لجهله بأخلاق المسلمين الأولين، وظنه أن خالدًا كان يقاتل من أجل الإمارة، فإذا تركته الإمارة ترك القتال؛ أو أنه يقاتل من أجل الخليفة، رغبة بوسام يناله، ورتبة يحظى بها، فإذا عزله الخليفة انصرف عن الحرب، أو ثار وعارض، كما قد فعل القواد من غير المسلمين، لم يدرك أن خالدًا كان يقاتل لله، ورغبة في ثوابه، فكان سواء لديه أكان جندياً صغيراً، أو قائداً عاماً، ولم يبلغ هذا الناقد قول خالد حين وصل إليه العزل: والله لو ولى علي عمر امرأة لسمعت وأطعت!!

الله أكبر! ما هذه النفوس؟

أما إنه لا عجب إذا لم نفهمها، ولم ندرك كنهها.

فلقد كانت تحلق في سماء لا تبلغها نفوسنا ولا بالخيال، ولا غرو إن لم نستطع أن نفهم كيف أثر عمر المصلحة العامة فعزل خالدًا وهو يقسم أنه يحبه، وهو صادق في قسمه. وكيف رضي خالد بالعزل وقاتل جندياً كما كان يقاتل قائداً، ولا غرابة إن لم يفهم مؤرخو الغرب

والمستشرقون سر هذه المسألة، فإنها مسألة رجال هم من طراز لا يعيش في أوروبا!»^(١).

وهكذا يتضح وجدان الطنطاوي الإسلامي وأثره في تناول أحداث التاريخ وتفسيرها تفسيراً روحياً قوياً يستمد قوته من معطيات مادية حقيقية، تتفق والوجهة الإسلامية التي التزمها منهجاً وفكراً وأسلوباً.

كما يتضح وجدان الطنطاوي المنفعل بالإسلام من خلال إعجابه بالسلوك الإسلامي المتزن، وإشادته بالخلق الإسلامي الملتزم.

يقول في ترجمته لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «وأخى الرسول ﷺ بين كل اثنين، فكان أخا عبد الرحمن بن عوف (المهاجر) سعد بن الربيع (الأنصاري) فلم يكف سعداً أن أنزله في بيته وأكرمه بضيافته وأراه من بره حتى قال له:

إنني أكثر الأنصار مالاً، ولقد قسمت مالي نصفين فخذ أفضلهما يكن خالصاً لك، وإن لي زوجتين فاختر منهما خيرهما عندك أطلقها وتزوجها أنت بعدما تنقضي عدتها!.

أرايتم مثل هذا الإيثار أو سمعتم به؟ هل رأيتهم في المجتمعات الخيالية التي تصورها الأدباء والفلاسفة، مثل هذا المجتمع الحقيقي؟

(١) قصة حياة عمر، ص ٢٨ - ٢٩.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

فقال له عبد الرحمن:

بارك الله عليك في مالك، وفي أهلك، لا أريد منك شيئاً ولكن
دلني على السوق!.

إنه يريد أن يعيش بكده، ويغنى بعمله، ولا يكون كلاً على أحد.

وكذلك يكون المسلم الحق^(١).

فوجدان الطنطاوي المتمزن بالإسلام يثير إعجابنا بإيثار سعد بن
الربيع رضي الله عنه وكرم نفسه، وسخائه، كما يشيد بعفة عبد الرحمن بن عوف
رضي الله عنه وسعيه، واجتهاده؛ ليبين لنا أن تلك هي صفات المسلم الحق، أي
الذي اكتمل إسلامه قولاً وعملاً واعتقاداً.

ومن ثم يتبين دور الوجدان الإسلامي في تناول التاريخ، للسعي به
نحو تصحيح المفاهيم وتقويم السلوك وبناء القيم والأخلاق.

ويلاحظ أن تراجم الطنطاوي، كانت ترجمة عن وجدانه، وتلبية
لإحساسه بعظمة الإسلام وقيمه التي يهفو من خلالها إلى الاقتداء بمن
تمثلت فيهم هذه القيم من الصحابة والأعلام.

كما كانت تعبيراً وتنفساً عن ضيقه وتبرمه بمعاناة الأمة وترديها
في مستنقع التخلف والضعف الاجتماعي والخلقي والفكري والعملية
وتجرعها لغصصه، بضياح الحقوق، وفقدان الحرية، واستبداد

(١) عبد الرحمن بن عوف، علي الطنطاوي، ص ١٢.

الحكام، واستغلال الطامعين، وتخريب (المستعمرين) المخربين... مع ما لها من دين عميق، وتاريخ عريق يعانيان الإقصاء والإهمال. فكانت هذه التراجم رسائل موجهة ومعبرة عما يتمناه في نفسه من إيقاظ الأمة وتوعيتها، وإحياء دينها وقيمها، واستعادة عزها ومجدها على أسس حضارية إسلامية كتلك التي كانت لأسلاف المسلمين الأوائل.



المبحث الرابع

وجدان الطنطاوي في مقالاته

مقالات الطنطاوي:

من يتأمل مقالات الطنطاوي يلاحظ أنه إسلامي في وجدانه، منضبط في رؤيته، لا يغفل عن واقع الإنسان، ولا يزيّف في علاقته بنفسه أو علاقته بأخيه الإنسان، أو بخالقه وكونه، ولا في علاقته بالمرأة والطبيعة والحياة... ولعل فيما مر من نماذج دليل على اتزان وجدان الطنطاوي وسلامة عواطفه.

ومن مظاهر هذا الوجدان الصادق المنفعل بالإسلام ما نراه في مقالاته التي واجه بها (الاحتلال)، وما تحمله من ألفاظٍ ومعانٍ مترعة بالسخط والكراهية والوعيد والتهديد.

يقول الطنطاوي من مقالاته «يا أمة الحرية» التي نشرت سنة

١٩٣١م:

«وأنا لا أجمع الكلام، ولا أديره على وجوهه التي ترضون عنها. فقد يئست حتى ما في نفسي مكان لأمل، ولا متسع لخوف. واليأس لا يخيفه شيء. وإن نحن عجزنا أن نعيش أحراراً فلن يعجزنا أن نموت أحراراً، وما بعد الذي كان يوم الأحد، أمل ولا خوف.

لقد قضي علينا أن نهبط من عليائنا، وأن نسلب حريتنا، ونفقد استقلالنا، ولكن لم يأت بعد ولن يأتي أبداً اليوم الذي نخسر فيه إيماننا وكريم خلالنا...»^(١).

فهذا وجدان صادق منبعث عن دوافع ذاتية، حرّكه تسلط المحتل ومفاسده، فانطلق يعبر عن هذا الوجدان بألفاظ ساخطة، ونفس ثائرة تتخذ من الإيمان سلاحاً لها، ومن تعاليمه رائداً لمسيرها في القضاء على عدوها.

وهكذا يسير الطنطاوي في مقاله على هذا النحو بعبارات قوية، ومشاعر جياشة، تثير الهمم، وتحرك العواطف، وتصب العزم والتضحية في الأبدان، وتملأ النفوس قوة وصلابة؛ لأنها كلمات صادقة استمدت قوتها من صدق صاحبها، وإيمانه بها، وخروجها من قلبه الملتاع بجراح (المحتلين)، وجرمهم. يقول:

«لقد قاسينا منكم الظلم، وعاشنا الفقر، وشاهدنا الخراب، وأصبحت مدينتنا أطلالاً، وأهلها مشردين، ونساؤها ثاكلات، فماذا نخاف بعد هذا؟»

عندكم أشد من الرصاص؟ فقد فتحنا له صدورنا! والقنابل؟ قد أعدنا لها دورنا! هل عندنا أعلى من الأرواح؟ لقد بذلناها ثمناً للاستقلال»^(٢).

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ج ٢، ص ٥.

(٢) السابق، ج ٢، ص ٦.

ثم تزفر نفس الطنطاوي -وقد هالها ما حدث- بكلمات تخرج وكأنها طلقات نارية تزلزل بنيان (المحتل) وتهدم أحلامه الباطلة في توعد وتهديد، كلمات خرجت في صياغة محكمة، وكأنها تجارب إنسانية، وقوانين كونية تقنع العقل، ولا تقبل النقد أو الشك. يقول:

ثمن المجد دم جدنا به فانظروا كيف دفعنا الثمنا

كيف سقينا بدمنا وادي ميسلون، وجنان الغوطة، وبطاح حماة، وحمص وأرجاء حلب. والأرض التي تسقى بالدم لا تثبت إلا الاستقلال.

فاملؤوا المرجة دبابات، واقتلوا منا المئات، واكذبوا فانثروا ماشئتم من بلاغات، فكل ما هو آت آت.

إن الهرة إذا حبست وضويقت انقلبت لبؤة، والبركان إن سدت فوهته كان الانفجار، والشعب إذا استذل ثار، والنار ولا العار، وللشهداء عقبى الدار»^(١).

وكما رأينا لم يكن الطنطاوي سلبياً ولا مخادعاً لأمتة، بل كان إيجابياً يقظاً، فغزا القلوب بكلماته الصادقة، فكانت دفعات عزم صبّها في وجدان الأمة، ودفعات عزم وأمل في طريقها الطويل ضد هذا (المحتل) الغاشم الذي هال الأمة بقوته وسلاحه وتنظيمه ومخترعاته، فأفقدتها التوازن وثقة النفس.

(١) السابق، ج ٢، ص ٦.

ومن هنا حاول الطنطاوي بهذه الكلمات قتل اليأس، وإعادة الثقة بالنفس عن طريق الإيمان وبعث قوته في القلوب.

ومن مظاهر قوة عاطفة الطنطاوي الدينية غيرته الشديدة على الإسلام، حتى إذا رأى من يغمز الدين، أو من يخرج على منهجه ثار غضبه، واشتعلت غيرته، وصبّ على هؤلاء مقالات من النقد اللاذع، الذي يدفع الشبه، ويزيل الأباطيل، ويخرس الأقلام بالشدة والعنف حيناً، وبالسخرية والتندر أحياناً.

من ذلك مقالته التي رد فيها على الأستاذ - أمين الخولي لتضامنه مع الباحث/ محمد أحمد خلف الله الذي تقدم برسالة عن القصص في القرآن الكريم، والتي كانت تحت إشرافه مع ما حملته من خلط وادعاء من أن القصص القرآني مستمد من مصادر أخرى غير عربية... وأن فيه أساطير لا أساس لها...!!^(١).

قال الطنطاوي: «... مقالنا اليوم تذكير لهذا الشيخ بأنه ليس من أصحاب العقول الكبيرة، والبحث العلمي، ليزعم أنه يكفر إذا كفر عن بينة، وما له إلا أنه رأى أديباً زل من عشرين سنة وأي أديب لا يزل؟ فقال كلاماً مثل هذا الكلام، فملاً اسمه الدنيا وشغل الناس، فأحب أن يكون مثله، وشتان ما بين الرجلين!».

(١) السابق، ج٦، ص١٨٢.

والأفهل ثبت له بعد البحث والتحقيق أن قصص القرآن مأخوذ من التوراة، ومن الأدب الفارسي، واليوناني؟ وأن فيه أساطير لا أساس لها؟ وهل وقعت له النسخة المخطوطة بخط مؤلف القرآن - الذي هو الله - إذا كان فضيلة الشيخ لا يزال يعتقد أن القرآن من عند الله، فعرض عليها بالنواجد؛ ليفضح المؤلف ويكشف عن سرقاته ويشفي غيظه منه؟ أستغفر الله كثيراً، وتعالى عما يقوله الكافرون علواً كبيراً.

ولندع الكلام في الدين مادمت يا مولانا الشيخ تحسب أن الخروج عليه مدنية وتقدم، وأن الأخذ به رجعية وتأخر، وأنك أعلنت الكفر، وجهرت به، واخترته والعياذ بالله لنفسك، ولناخذ هذا العلم، والمنطق والتاريخ!..

فهل في العلم والتاريخ شيء يؤيد ما جاء في الخبر أن الأطروحة اشتملت عليه؟ وأعلنت أنك مع المؤلف في كل حرف منه؟ وبأي دليل من أدلة العلم، وفي أي كتاب من كتب التاريخ ثبت لك ولصاحب الأطروحة أن الله قد قبس قرآنه من أدب فارس ويونان، ومن هذه الأساطير؟ أستغفر الله، وتعالى عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

وإذا لم يكن القرآن كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا من جهة فارس، ولا من جهة يونان، وكان من تصنيف محمد، وكان قد اقتبس من آداب الأمم ومن أساطيرها، فكيف خفي ذلك على أسلافك من أنصار حرية الفكر، أعني حرية الكفر! من اليهود والنصارى والمجوس والزندقة؟ وكل عدو للإسلام خصم

للقرآن، فلم يؤلف فيه أحد، ولم يثبتته، حتى جاء تلميذك هذا فكتبه؛ لتكافئه الدولة على كفره بدينها الرسمي، وطعنه بقرآنها، بإعطائه شهادة الدكتوراه...»^(١).

وهكذا نرى أن الكاتب عند ما يبلغ الإيمان بفكرته إلى الأعماق تبدو في كلامه وكأنها جزء منه، فتحصل لديه بذلك قوة جديدة تجعله يتدفق كالسيل، فتواتيه المعاني سهلة دون كد أو عناء، وتتسلسل لديه الأفكار من غير تناقض أو اختلاط، وتكسبه صدقاً معبراً، وانفعالاً مؤثراً^(٢).

فهذه العبارات التي أفصحت بوضوح عن وجدان الطنطاوي المنفعل بالإسلام، الغيور على قرآنه، الثائر على الخارجين عليه بقوة تزلزل أركانهم، وتردهم عن غيهم. وقد آتت هذه المقالة جدواها؛ لأن الباحث المتعجل - بعد هذه المعركة - حين طبع الرسالة في كتاب مستقل حذف كثيراً مما كان موضع الاعتراض، وعمل على ظهورها في وضع أقل اعتسافاً! وأقول: أقل اعتسافاً؛ لأنها حملت كثيراً من الأخطاء التي قام بتصحيحها نفر من الفضلاء على صفحات الرسالة وغيرها...^(٣).

(١) مجلة الرسالة، ص ١٠٣٤، عدد ٧، ٧٤٢ ذي القعدة ١٣٦٦هـ، ٢٢ سبتمبر ١٩٤٧م، السنة ١٥، ج ٢.

(٢) مقدمة في النقد الأدبي، د/ علي جواد الطاهر، ص ١٤٥.

(٣) الأدب الإسلامي «الطنطاوي في صحافة مصر» د/ محمد رجب البيومي، ص ١٦ العددان (٣٤، ٣٥).

وليست ثورة العاطفة هي الدليل على صدقها فحسب، بل قد نرى العاطفة هادئة وصادقة ومع ذلك مؤثرة؛ لصدورها عن إيمان صادق، ووجدان حي يناسب الغرض. يقول الطنطاوي:

«يا أهل مصر! اثبتوا على جهادكم فإننا جميعاً معكم، قضيتكم قضيتنا، وعدوكم عدونا، ما ضرنا أن تفرّق بيننا الحدود على الأرض، والألوان على المصور مادام يجمعنا القرآن، وتوحد بيننا الضاد، وتربطنا الآلام والآمال، وذكر الماضي وأمانى المستقبل...»^(١).

فهذه العبارات تعكس وجدان الطنطاوي الصادق الذي تخير للتعبير عنه هذه النبرة الهادئة، والكلمات اللينة التي تناسب إعلان تضامنه وتضامن شعبه مع أهل مصر، ومشاركتهم الشعور والآلام، إيماناً منه بأخوة الدين ووحدة جميع المسلمين.

ويتضح وجدان الطنطاوي الإسلامي في حرصه داعية، وصاحب رسالة، على إقامة علاقة وثيقة بينه وبين جماهيره تضمن له ثقتهم فيه، واقتناعهم به، وقربه منهم، ومن هنا خلا أسلوبه من التجافي والاستعلاء والتجهم، بل يلاحظ في مقالاته أنه يبوح لمتلقيه عن مكنون نفسه؛ ليقبلوا عليه ويأنسوا به؛ لأن الإنسان يحذر من يجهره ويألف من يعرفه.

فالبوح إذن سلاح عظيم لفتح القلوب وتهئية النفوس إذا أحسن استخدامه، وقد أجاد الطنطاوي توظيفه، فكان ببوحه عن آماله،

(١) هتاف المجد «إلى الشعب المصري». لعل الطنطاوي. ص ٨٢.

وأحلامه، ووصفه لآلامه وأحزانه يقربنا إليه، ويزيد محبتنا فيه، وبذلك استطاع أن ينفذ إلى شغاف القلوب ويسلس قياد النفوس.

وكان من مظاهر هذا الود الحنون: شعورنا معه برفع التكاليف، وإزالة الحواجز بيننا وبينه؛ يستشعر القارئ لمقالاته بقربه منه، حتى كأنه يلمسه بجواره، ويشاركه في حوار، يسمع همساته، ويجب على تساؤلاته.

يقول من مقالة «بين العلم والأدب»: «... ودع هذا... ولنأخذ الاختراعات النافعة؛ لنأخذ المواصلات مثلاً، لا شك أن العلم سهلها وهونها؛ فقرب البعيد، وأراح المسافر ووفر عليه صحته ووقته ولكن هل أسعد البشرية؟

أحيلك على «شبنكر» لترى أن البشرية قد خسرت من جرائها أكثر من الذي ربحته»^(١).

ومن مقالة «الأدب العربي في مدارس العراق» قوله: «وسأتكلم عن كل درس من هذه الدروس بإيجاز واختصار. الإنشاء: أستاذنا أولاً زملائي الكرام في عرض هذه الآراء؛ فلست ألقى عليهم دروساً، ولا أزعجهم أن ما أقوله هو الصواب، ولكنني أعرض تجاربي...»^(٢).

على أن الطنطاوي قد أضاف إلى هذه القيمة التعبيرية الوجدانية

(١) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ٢٢.

(٢) السابق، ص ١٥٢.

في حديثه الإذاعي أو المرئي أبعاداً أخرى، تتمثل في حسن الإلقاء، وطريقة الأداء التي لها دور مهم في جذب النفوس، وارتباط القلوب.

ولذلك يقول الدكتور أحمد بسام ساعي: «ولا أشك في أن (بساطة) الطنطاوي موهبة أحسن استخدامها، وتمكن من تثقيفها معاً؛ فلم تعد لهجته التحديثية القريبة إلى النفس، وحركات يديه التوضيحية المعبرة، وتنقلات رأسه بين ارتفاع وانخفاض، وتقدم، وتأخر، أو تحريكه لنظاريته بين الحين والآخر صعوداً وهبوطاً، فيرى إلينا من فوقهما حيناً، وإلى الأوراق بين يديه من خلالهما حيناً آخر، ثم الجو الواقعي الذي يحيط به نفسه، وهو يتوجه - أحياناً - بالحديث إلى المصور أمامه، أو يفاجئنا بالتفاتة سريعة إلى ساعته خشية أن يدركه الوقت، أو يمد يده إلى آلة التسجيل التي وضعها بجانبه؛ ليقلب شريطها، لم تعد كل هذه الأمور الجزئية الصغيرة مجتمعة، مما يخطط له الطنطاوي قبل دخوله (المنفرد الإذاعي) بل أصبحت جزءاً عضوياً من موهبته التحديثية على مر الزمن، يبعثنا به عن الجوا الإذاعي الرسمي (المتأنق)؛ ليشعرنا وكأننا معه في جلسة منزلية خاصة ترفع فيها كل قواعد التكلف، والتأنق و«الرسميات».

لقد استطاع أن يقيم توازناً رائعاً في استعماله لكل هذه الجزئيات التي تسم شخصيته التحديثية بالبساطة والواقعية الآسرتين»^(١).

(١) «الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد»، د/ أحمد بسام ساعي، ص ١٤٢.

كذلك يقوي الطنطاوي هذه العلاقة الوجدانية بالمتلقين عنه، بإشعارهم باهتمامه بهم، وحرصه عليهم بانفعال صادق، وود حنون، من شأنه تحريك العاطفة، وإحياء القلوب، بطبيعة لا تكلف فيها ولا اصطناع.

يقول من مقالة «يا ابنتي»: «هذه نصيحتي إليك يا ابنتي، وهذا هو الحق فلا تسمعي غيره، واعلمي أن بيدك أنت لا بأيدينا معشر الرجال، بيدك مفتاح باب الإصلاح، فإذا شئت أصلحت نفسك، وأصلحت بصلاحك الأمة كلها...»^(١).

ومن مقالة «نداء إلى أدباء مصر» يقول: «... فخبروني ماذا يصنع هذا الكتاب بنفوس الناشئة إن هم قرؤوه؟ أي قدوة لهم في الحياة تكون لهم فيه؟ أي نمط من العيش يحبب إليهم؟ أما والله إنه لخطب داهم.. ليس خطب هذا الكتاب وحده، فإن له لأمثالاً، وأنا من أمثاله لكثير كثير»^(٢).

ويضاف إلى هذا قدرة الطنطاوي في كثير من مقالاته على تهيئة جو من الارتباط العاطفي بمتلقيه من خلال الافتتاحيات التي يستهل بها المقال؛ ليقدم إلى متلقيه ما يستأنس به، ويزيل وحشته، ويتهيا به لاستقبال موضوعه بذكر حادثة خاصة وقعت له، أو خبر سمعه، أو ملاحظة لاحظها في أثناء عمله... متوخياً فيها ارتباطها بالموضوع،

(١) صور وخواطر، ص ١٥٥.

(٢) صور وخواطر، ص ١٥٨.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

وتلوينها بلون نفسه في موضوعه، من مزاح، أو سخرية، أو استبشار... إلخ.

وهذا لا يكون إلا من وحي الذوق، وإلهام الطبع اليقظ^(١).

من ذلك قوله في بداية مقالة «استعدوا للحرب»: «أحلف بالله ليصدق القراء أن ما أكتبه اليوم قد وقع البارحة، وأنه ليس خيالة من خيالات الأدباء...»^(٢).

وقوله في بداية مقالة «الموضة»: «كنت أعددت لهذا العدد كلمة غير هذه، وحملتها إلى الجريدة فلقيني عند باب العمارة صديق لي من الموظفين، له مرتب جيد، وزوجة متعلمة بنت أكابر، وقال لي: أستحلفك بالله أن تسمع ما أقول لك وتشره غداً...»^(٣).

فهذه المقدمات الجاذبة من شأنها تهيئة العقول، وتشويق النفوس؛ لاستكمال الموضوع، والانتباه لجزئياته، وترقب نهايته.

وهذه الأمور كلها تمنح الموضوع روحاً محمودة، وعواطف حية، تولد في النفوس الانتباه، والقبول، والاستجابة، والإعجاب، الذي يحتاجه كل داعية صادق في إصابة هدفه وتحقيق غرضه.

وإذا كان من التعرف على وجدان الأديب التعرف على من ينقل عنه، أو يقتبس منه، فإن وجدان الطنطاوي متعلق بالإسلام، منطلق

(١) تذكرة الدعاة، البيه الخولي، ص ٢٨١.

(٢) مقالات في كلمات، ج ٢، ص ١٢٩.

(٣) السابق، ج ٢، ص ١٦٠.

من منهجه؛ لذلك كان يطالعا في مقالاته بين الحين والحين مقتبساً، أو مستشهداً بآية، أو حديث، وقد يجتزئ من الآية، أو من الحديث بما يؤكد معناه ويقويه.

فمن استشهاده من القرآن الكريم قوله: «أليس عجباً أن يقول الله في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ثم يكون في المؤمنين من هو ذليل في نفسه»^(٢).

ومن استشهاده بالحديث القدسي قوله: «وروي. أيضاً. أن رسول الله ﷺ قال في الحديث القدسي: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا (أي مات من هو عزيز عليه) ثم احتسبه (صبر ورضي بالقضاء) إلا الجنة»^(٣). فيا أيها المصابون المتألمون! هذه بشارة من رسول الله ﷺ لكم، فاصبروا حسبة؛ لتكون لكم الجنة قبل أن تصبروا سلوا ونسياناً»^(٤).

ومن اقتباسه من القرآن الكريم قوله: «لقد كان أعداؤنا يخربون بيوتهم بأيديهم، وأيدي المؤمنين؛ فرحنا نخرب طرقنا بأيدينا، وأيدي الإنكليز ﴿فَاعْتَرُوا وَاتَّأُولُوا الْآبَصِرِ﴾»^(٥).

(١) سورة المنافقون، من الآية ٨.

(٢) من مقالة المثل الأعلى للشباب، علي الطنطاوي، ص ٦٠.

(٣) صحيح البخاري «كتاب الجامع الصحيح المختصر» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ج ٥، ص ٢٣٦، حديث رقم ٦٠٦٠ تحقيق د/ مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ، دار ابن كثير، دمشق.

(٤) فصول إسلامية «الصبر» علي الطنطاوي، ص ٢٢٥.

(٥) من مقالة المدينة، من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، ص ١٢٦، والآية من سورة الحشر، آية: ٢.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

ومن اقتباسه من الحديث قوله: «... فصار إلى بلد يرى فيه حيثما تلفت أسراب الحسان المثيرات كاسيات عاريات مائلات مميلات...»^(١).

كما يلاحظ توظيف الطنطاوي للتاريخ الإسلامي واستلهامه من حياة أعلامه، ما يؤكد فكرته، ويحمل على الاقتناع برؤيته، من ذلك قوله: «... ألم يكن الصحابة رهباناً بالليل جنأ في النهار؟ ألم يقتنوا الأموال، ويشغلوا بالتجارات، ويقبلوا على الصناعات، ألم يكن كبار العلماء تجاراً، وأصحاب أعمال ضخمة! أبو حنيفة كان له بيت تجاري كبير يديره بنفسه، وابن المبارك كان يستورد البضائع من خراسان، والليث بن سعد كانت وارداته في السنة عشرين ألف دينار من كسبه وعمله، لا من احترام الوعظ، وتقبيل اليد، وإطالة اللحية، وإمالة العنق!»^(٢).

وهذا بلا شك يعكس انفعال وجدان الطنطاوي بالإسلام، وصدوره عنه، وارتباطه به في أفكاره، وعواطفه، وتعبيراته.

ولكل ذلك رأينا وجدان الطنطاوي صحيحاً سليماً متزناً بميزان الإسلام الذي جنبه انحراف الرؤية، وشطط الخيال، وتدني الأسلوب في كل ما كتبه وصدر عنه، إلا أنه قليلاً ما رأيناه. كأبي إنسان خاصة

(١) مع الناس «رسالة» علي الطنطاوي ص ١٦٦. والحديث في صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٦٨، رقم الحديث ٢١٢٨.

(٢) فصول إسلامية «كتاب في الدين الإسلامي» علي الطنطاوي، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

في شبابه وهي مرحلة تقلب العواطف . عندما يتعرض لظروف خاصة، وعوارض طارئة تؤثر في وجدانه، ويستسلم لها؛ فتبدو رؤيته لذلك بعيدة عن اتزانه وانضباطه المعهود.

من ذلك نبرة السخط واليأس في مقالة «زفرة أخرى» التي منها قوله: «يا رحمة الله على الأيام التي كنت فيها غراً مغفلاً، أصدق كل خداع كذاب، يزعم أن في الدنيا فضيلة وخلقاً، وأن قيمة الإنسان بما يملك منهما.

لقد خدعني المعلمون والأدباء فلماذا أخذت تلاميذي؟ لماذا لا أقول لهم: إن المكر والكذب، والنفاق هي في شرع الحياة فضائل، فأعدوا قواكم لإصلاح المعوج من شرائعها، أو فانزلوا على حكمها، فخطبواهم بلسانها وادخلوا من بابها»^(١).

ويستمر بتلك الرؤية المتشائمة إلى أن يقول: «وكنتم أرى الحب أساس الحياة، عليه قام الكون، وبه استمر الوجود، وكنتم تؤمن به، فغدوت لا تؤمن إلا بالبغض، وصرت أحب أن أبغض، وأبغض أن أحب...»^(٢).

فهذه العبارات التي تحمل السخط واليأس تعكس مدى انفعال الطنطاوي بعوارض طارئة أفقدته توازنه، وشوّهت رؤيته، فبدت الحياة في عينيه مظلمة لا خير فيها ولا فضيلة...

(١) من حديث النفس «زفرة أخرى» علي الطنطاوي، ص ٩٢.

(٢) السابق، ص ٩٢.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

وهذه الرؤية بعيدة عن الإسلام الذي يحارب اليأس، ويبغض السخط والقنوط، ويدعو إلى الأمل في الله والرضا بحكمه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

على أن هذه النظرة كانت غريبة على الطنطاوي، وهذا الإحساس طارئ عليه؛ ولعله كان انعكاساً لحادث أثر في نفسه، أو أثر لمذهب سرعان ما تخلص منه، بل دعا الكتاب إلى نبذه والتخلص منه بعد ذلك، فقال: «حسبنا بكاءً، ويأساً، ورتاءً للماضي، وفزعاً مما يخبئ لنا المستقبل! كفى تبرماً بالحياة، وشكوى منها، ودعونا من أدب «لا مارتين وموسيه»»^(٢).

ولهذا فقلما نجد الطنطاوي في وجدانه مستجيباً لمثير خارجي كهذا، فتختلط به رؤيته ويبتعد عن وجهته. كقوله: «... لما كنت في العراق كنت أرى بعض العراقيين يظهر الكراهية للمدرسين السوريين وينفسون عليهم روايتهم التي يأخذونها...»^(٣).

هذا الحدث أثر في وجدانه فأيناه بسببه يخرج عن إطاره الذي عرفناه به، في دعوته للوحدة، وثورته على الحدود والقيود الدولية؛ حيث قال:

(١) سورة آل عمران: آية ١٣٩.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي «الأديب القومي»، ج ٢، ص ٢٩١.

(٣) في سبيل الإصلاح من مقالة «وكم في مصر من بنات أميات»، ص ٤٦.

«... فعلى كل قطر ألا يدع في أبنائه فقيراً، وألا يترك فيه رجلاً بلا عمل، وأن يمنع الغرباء عنه من مزاحمة أهله في زراعته وتجارته وصناعته، حتى إذا اشتغلوا جميعاً، وبذلوا قواهم كلها، وبقي فيه بعد ذلك فراغ لأيد غير أيديهم، وأموال غير أموالهم استعانوا بأبناء الأقطار العربية الأخرى، ولم يفتحوا لهم الباب إلا بمقدار الحاجة، أما أن يجيء السوري ليعمل في مصر، ويجيء المصري ليشغل في الشام، ويترك أهل البلد بلا مال ولا عمل، فتفسد البطالة أخلاقهم، ويذل الفقر نفوسهم، ويعلمهم هذا وذاك كره أخيهم العربي، فليس من مصلحة العرب أن يكون!.. هذا رأيي أعلنه بلا جمجمة ولا مداراة»^(١).

فإذا كان هذا من مصلحة العرب فمتى يشعر المسلم إذا بوحدته أمته الإسلامية وهو لا يستطيع أن ينتقل بين أقطارها أو ينال من حلال خيراتها، وقد جعل الله من الانتقال والهجرة ما يكون سعة للفقير، ونجاة للضعيف؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾^(٢).

والأفالمشكلة لم تعد في الحدود فقط، وإنما في تفاوت الأجور، واختلاف قيمة «العملات» تلك التي دعت إلى الإقبال والتزاحم على بعض البلدان، وتولد السخط والضجر في بلدان أخرى، ولو عولج هذا،

(١) السابق، ص ٤٧.

(٢) سورة النساء من الآية ١٠٠.

الفصل الثالث : مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي

فتقاربت الأجور، واتفقت العملات ما طمع الناس في الانتقال والترحال إلا للضرورات؛ لأن الله فطر الناس على حب أوطانهم وأماكنهم التي نشؤوا فيها، وحينها لو أزيلت الحدود لهدأت النفوس، وصارت أقوى في تضامن الأمة ووحدتها؛ إذ يشعر المسلم حقيقة أن وطنه هو العالم الإسلامي الواسع لا قطره المحدود.

أما في ظل الحدود وتفاوت الأجور ومنع الغرباء، فإن المشكلة تتفاقم والشقة تتباعد، فتنمو الفرقة، وتظهر الأنانية، وتبدو السلبية، وعدم الانتماء.

والأديب مطالب بأن تتسع نظرتة في الإصلاح إلى آفاق إسلامية بعيدة؛ ليدفع الناس إلى التطلع إليها والسعي نحو تحقيقها، لا أن يجهد نفسه في ترميم بناء مهالك يوشك على الانهيار!

ولعل الذي دفع الطنطاوي إلى هذه الرؤية استسلام وجدانه لهذا العارض السابق الذي غير وجهته، وبدت من خلاله نظرتة؛ وبهذا تتضح خطورة استسلام الأديب للعوارض الطارئة التي تصبغ نفسه بصبغة يلام عليها.

وبعيداً عن هذه الهنات فإن عاطفة الطنطاوي القوية، ووجدانه الصادق قد أضفى على منهجه الاعتدال، وعلى ألفاظه وصوره الحيوية والقوة والاتزان؛ حيث إن وجدانه منفعل بالإسلام، متزن بقيمه وتعاليمه، مما أكسبه إقناعاً وثقة بين جماهيره الكثيرة؛ ولذلك كانت كلمته تستمد قوتها من صدقها، وإيمانه بها.

يقول الأستاذ/ سيد قطب - رحمه الله: «إن الكلمة لتنبعث ميتة وتصل هامة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسماً واقعياً لما ينطق، عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس ولولم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق... إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها... إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة؛ لأنها منبثقة من حياة»^(١).

فإذا كان الطنطاوي لا يتكلم إلا بما يعتقده بانفعال صادق، ووجدان حي، بعيداً عن الزيف والادعاء والتمويه حتى كان في أحاديثه الإذاعية «يقص الحكاية الطريفة فيضحك لها ببراءة الأطفال، وكان يسرد الحكاية الحزينة، فيبكي لها بكاء الخاشعين»^(٢)، علمنا مدى ما كان لكلمته من أثر في النفوس وسيطرة على القلوب.



(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ١، ص ٦٨، الطبعة ١١. دار الشروق ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

(٢) هاجر أم المسلمين، من مقالة السابقون إلى الدار الآخرة الشيخ علي الطنطاوي في ذمة الله،

للأستاذ/ أنور عبد المجيد الجبرتي، ص ١٧، العدد ٥٠، السنة العاشرة، ١٥ جمادى الأولى ٢٦

أغسطس ١٩٩٩م.

الفصل الرابع

مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

اختلف مفهوم الخيال عند أصحاب المذاهب المختلفة^(١)، ولكنه من المنظور الإسلامي وبعبارة موجزة مجملة كما يقول أستاذنا الدكتور/ إبراهيم عوضين: «هو القوة الفنية التي يحوّل الأديب بها المعاني صوراً يعبر عنها بما يملك من ألفاظ وتراكيب، وصيغ فنية مشحونة بالأحاسيس والمشاعر والإحياءات التي تلائم المتلقي، والتي تعبر في الوقت نفسه عما يجده هذا الأديب»^(٢).

وعلى ذلك «فالخيال وسيلة فنية يتمكن بها الأديب من رؤية الجوانب المثيرة في الموقف أو الحدث، والوقوف على ما تحدثه تلك الإثارة الانفعالية في نفسه، وما تولّد عنها من عواطف... كما يتمكن بها من إعادة ترتيب ما رآه ووقف عليه، ليهيئه في الصورة التي تحدث الأثر نفسه في المتلقي أو تنقل إليه صورة مما وجده الأديب المبدع»^(٣).

(١) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ص ٢٨٨ وما بعدها، ط دار نهضة مصر، ١٩٩٦.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٥٧.

(٣) السابق، ص ٢٦٦.

ولا يقوم هذا الخيال بدوره الفطري الصحيح، ولا يؤدي وظيفته الفنية السديدة إلا إذا كان يلبي دواعي الفطرة القائمة على مزج عنصرَي الإنسان^(١).

وأما عن خيال الطنطاوي ودوره في أدبه، فيبدو بمظهره الإسلامي من خلال المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: خيال الطنطاوي في خطبه.

المبحث الثاني: خيال الطنطاوي في قصصه.

المبحث الثالث: خيال الطنطاوي في تراجمه.

المبحث الرابع: خيال الطنطاوي في مقالاته.



(١) السابق، ص ٢٨٨.

المبحث الأول

خيال الطنطاوي في خطبه

الخيال الطنطاوي في خطب الطنطاوي

إن من يتأمل خطب الطنطاوي يلاحظ أنه استخدم الخيال وسيلة فنية تجسد المعاني وتبرز الخواطر، وتكشف عن انفعالاته وعواطفه التي تعتلج في صدره، والتي يريد نقلها إلى الآخرين وإشعارهم بها؛ لتتضح في أذهانهم على حقيقتها القائمة في نفسه، وكأنما يريد بها «إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير، حتى يكاد ينظر إليه عياناً»^(١).

من ذلك هذه الصورة التي قالها «في مساندة الجزائر» التي نقلت أحاسيسه تجاه (المحتل) البغيض، وجسده بوحى الألفاظ وأبعاد الصورة، قال الطنطاوي:

«... أعرض عليكم لوحة صغيرة من لوحات الثورة... كنت يوماً في بسيمة في أواخر الثورة، وبسيمة جنة من الجنان في وادي بردى... وكان

(١) المثل السائر، ابن الأثير ٧٨/١، ط المكتبة العصرية، بيروت.

فيها البطل عز الدين الجزائري... وكان في عدد قليل من المجاهدين، فكانت تخرج له الحملة الضخمة من الجنود، معها السلاح والعتاد فيربط لهم فم الوادي، فيصيد جنودها ويهزمها ويردها، فتعدو فرنسا على القرى الآمنة تنتقم لعجزها منها، فتسوق البراء من أهلها إلى الموت، وتذيقهم العذاب قبله ألوانا وتهدم البيوت وتتهب الأموال^(١).

يلاحظ هنا أن الطنطاوي في خياله وتصويره متوجه بتوجه الإسلام وقيمه؛ حيث لم يزيّف في تصويره على مستمعيه بتهويل وتضخيم قوة الأعداء حتى لا يدخل في نفوسهم اليأس والقنوط، كما لم يهون من شأنهم حتى لا يدفعهم إلى التراخي والكسل، وإنما صور الجنود الفرنسيين في صورتين:

الأولى: صورتهم الضعيفة الهزيلة التي لم تمكنهم من الثبات أمام قلة من المجاهدين؛ لبيث بتلك الصورة الأمل في القلوب والرجاء في النفوس بتحقيق النصر عليهم.

والصورة الأخرى: صورة الجنود الفرنسيين في حمقهم ونذالهم وقوتهم المتفطرة والمتجبرة في مواجهة العزل والمساكين؛ ليشحن بهذه الصور النفوس بالكراهية والسخط الذي يدفعها للحركة والعمل والثورة والانتقام.

وقد استطاع الطنطاوي من خلال هذه الألفاظ والتراكيب في تلك الصورة أن يكشف لنا عن انفعال نفسه، وينقل إلينا أحاسيسه

(١) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص ٢١٩.

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

تجاه هؤلاء (المحتلين). فرأينا بهذا التصوير تجسيداً حياً لتلك المأساة، واستحضار الماضي المؤسف الذي يمازجه الأمل، ويعانقه الرجاء.

وقد اعتمد الطنطاوي في تعميق صورته على المفارقة بين أمرين: بين وادي بسيمة وهو جنة من الجنان، وما توحيه كلمة جنة من بهجة وحياة وخضرة، وبين وادي بسيمة بعد العدوان وما أصابه من خراب ودمار ونهب وقتل... وكذا بين شجاعة المجاهدين وبأسهم الشديد، وضعف الفرنسيين أمام المجاهدين وبطولتهم على المساكين.

كما يلاحظ أن الطنطاوي توجه بهذه الصورة إلى شتى منافذ الإدراك لدى الإنسان لتتشرك كل حواسه في التعرف على صورته؛ ولتنتقل إليه حية كاملة كما استقرت في وجدانه.

فكلمة «جنة» تحرك الخيال إلى لون الخضرة والزروع والروائح والعمور، ومناظر الأزهار، وأشكال الغصون والثمار.

وفي تعبيره عن كمال سيطرة المجاهدين ومدى تمكنهم من الوادي بقوله: «فيربط فم الوادي» وما يحركه في الخيال من حركة الضم والربط الذي يوحي بكمال السيطرة وشدة التمكن.

وكلمة «فتسوق البراء من أهلها إلى الموت» كلمة تسوق تجسيد للحركة الشديدة في مدافعة البراء، والعنف في دفعهم في إهانة وإذلال، كما تساق الماشية بالزجر والضرب.

وكلمة البراء، تعكس مدى الإحساس بالظلم والشعور بالألم، كما تحرك الشفقة عليهم «خاصة أنهم من النساء والأطفال» والسخط على أعدائهم الجبناء. وإسناد السوق إلى الموت فيه تشخيص للموت في صورة وحش كاسر تساق ضحيته إليه في عنف وقوة لا مهرب منه ولا حيلة معه.

وكلمة «تذيقهم العذاب قبله ألوانا» تحرك الخيال إلى طعم العذاب الذي يتجرعونه، وتغص مراراته في حلوهم قبل أن ينزل على أجسادهم، وكلمة - ألوانا - توحى بشدة وقع العذاب وتنوع صور التعذيب الجسدي والنفسي والروحي.

وكلمة «تهدم البيوت وتنهب الأموال» تحرك الخيال إلى صورة الهدم البشعة وسرعة الحركة في الاستيلاء والسرقة، كما تعكس مدى الاستباحة والخراب والتشرد والضياع، الدال على التوحش والتجبر.

وجاءت الأفعال مضارعة، مع أنها وصف لحدث مضى؛ لتدل على استحضار الصورة واستمرارها بكل جوانبها وظلالها.

فهذه الصورة الكلية قد عكست صلابة المجاهدين أولاً، وكشفت عن الطبيعة الأخلاقية والنفسية للفرنسيين كما هي قائمة في نفس الطنطاوي ثانياً.

وللجزائريين بعد ذلك صورة قائمة في نفسه تبعث على الأمل يقول: «لكن الجزائر اليوم أوعى منا يومئذ، لقد تقدم الزمان. إن الجزائر تقف صفا واحدا...»^(١).

(١) هتاف المجد. علي الطنطاوي، ص ٢٢٠.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

فهذه الصورة عكست إحساس الطنطاوي وإيمانه بترابط الجزائريين ووعيهم وتماسكهم؛ ليؤكد بهذا على أن الجزائر اليوم تستنفد كل ما في طاقتها، وتسعى في ترابط لخدمة قضيتها، فهي لذلك جديرة بالمساعدة وتستحق المعاونة، فهي ليست مفككة ميتة الإرادة، ولا متكاسلة متراحية؛ ليقطع بهذه الصورة الطريق على من يصرف العبء عن نفسه ويلقي بالتبعة عليها.

ويلاحظ تعانق الصور الأدبية مع الصور المجازية في ارتباط قوي مؤثر، يحمل في تلافيفه إحياءات تهز النفس وتثير الخواطر، وتجسد المعاني؛ ليتحقق بذلك أعلى قدر من الإثارة والإقناع؛ لأن الأساليب تقدر بمقدار ما توقظ وتثير وتحرك، حتى إن أقواها ما ينقلنا إلى حالة نحس فيها أحاسيس جديدة ونعيش بها أجواء جديدة^(١).

وعلى ذلك فقد وظّف الطنطاوي الخيال توظيفاً إسلامياً في تقريب المعاني البعيدة، وإبراز العواطف والأحاسيس التي تحرك النفس وتوقظ الحس بصورة خلاصة، متسقة العناصر، مستمدة من الحقيقة الذي يجمّلها الخيال ويعمّق الإحساس بها، بعيداً عن الغموض والإسفاف، وصنع الأساطير والأوهام.



(١) التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، د/محمد أبو موسى، ص ٢٥٤، ط ٢، دار

التضامن، القاهرة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

المبحث الثاني

خيال الطنطاوي في قصصه

الخيال في قصص الطنطاوي:

الملاحظ على خيال الطنطاوي في قصصه أنه خيال إسلامي وثاب، متزن باتزان الإسلام ومنضبط بقيمه؛ حيث كان بعيداً فيه عن الشطحيات والتهويمات التي تفرق الإنسان في أوهام بعيدة عن الحق والواقع، وبعيداً فيه عن الخلط والتشويش والخداع، ومتجنباً فيه ما يثير الغرائز ويشعلها بتصويرات شاذة ومنحرفة.

وإنما نراه استخدم الخيال وسيلة كشف وتشويق، أو عرض وتصوير لوقائع الأحداث والربط بينها بصورة تجعلها تقع في نفس المتلقي كما وقعت في نفسه.

ومن هنا رأيناه في قصصه التاريخية، قد استمد مادتها من التاريخ، وأمدّها بالخيال المعتدل في تنسيق وترابط رائع، وعرض وتشويق جذاب، فبث فيها بذلك الحركة والحياة.

وفي قصصه الاجتماعية، نراه اتخذ من الواقع مرجعاً له يستمد منه موضوعه، فقصصه إما أن تكون عن واقع اجتماعي حدث، أو يمكن حدوثه في الواقع.

ومع هذا لم يأخذ الطنطاوي المنهج الواقعي على علاته بل طوعه للإسلام، حيث لم ينقل الواقع نقلاً جافاً، أو مثيراً للغرائز دون أن يعمل عقله وخياله، وموهبته الفنية في معالجة هذا الواقع معالجة فنية تبرز فيها الوجهة الإسلامية، والقيمة الأخلاقية التي تؤكد بالطريقة العملية الحية أن الدين بمثله وقيمه وواقعه الحيوي والتاريخي هو الأصلح لإقامة حياة صالحة، وهو الأقدر على مساندة مستجدات الحياة والتغلب على عقباتها وتحدياتها.

فمن مظاهر اعتدال خيال الطنطاوي واتساقه في توازن مع العقل لاكمال الصورة المقصودة، اصطناعه الحيلة في قصة «قضية سمرقند» التي تمثلت في اصطدام السمرقندي بالمسلم الدمشقي في المسجد ليدور بينهما هذا الحوار الكاشف على نحو ما جاء في القصة من وصف لأmir المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعرض مزاياه، وبعض أخباره التي استقاها من مطالعة التاريخ ووظفها هنا في حوار شائق على لسان الدمشقي رداً على أسئلة السمرقندي وتطلعه؛ لتتضح الصورة التي كانت لأmir المؤمنين رضي الله عنه والتي يريد بعثها فينا من جديد.

وقد أحسن الطنطاوي بخياله في إيجاد هذه الشخصيات وتوظيفها توظيفاً يخدم هدفه في عرض عظمة المسلمين دون شعور بإحجام لوجودهم، أو قلق أو خروج عن طبيعة القصة وأحداثها.

وفي قصة تاج كسرى نرى دور الخيال الإسلامي واضحاً في كشف ما تموج به نفس الطنطاوي من أحاسيس وانفعالات تجاه الأحداث؛ ليعمق إحساسنا بها من خلال شخصياته وعواطفهم. قال:

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

«ورجع سراقه وقد اجتمعت عليه المتناقضات من الأفكار والعواطف، وهاج في نفسه الطمع والخوف، والأمل واليأس، فجعل يقهقه في هذه البادية، ويصرخ كمن به جنة، ولم لا يجن؟! وقد كان يأمل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل، وقد فتحت فاهها لتبتلعه الأرض فنجا، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعده دونه خرط القتاد، وخرق النار، وخوض البحار.

ماذا؟! أيعدني محمد سوارى كسرى، كسرى شاهنشاه ملك الملوك.. وهو يقطع الصحراء هاربا من قومه، متخفيا في غار ليس معه إلا رجل واحد؟^(١).

فهذه الصورة أظهرت لنا مدى الاضطراب الداخلي والحيرة النفسية لسراقه عليه السلام وتردد هذه النفس بين الطمع والخوف، والأمل واليأس.

كما عكست صورة وجهه في تعجبه ودهشته، وأسمعتنا صوته في قهقهته وصراخه، وأبانت لنا عن حركة فم الأرض في ابتلاعه المماثلة لحركة فم الجائع في التهام طعامه.

وأظهرت لنا مدى صعوبة تصور صدق هذا الوعد في ذهن سراقه، فضلا عن تحقيقه وحصوله في ظل هذا الواقع الذي يراه.

وبهذا يتضح دور الخيال الإسلامي في كشف مكنون النفوس وإدراك أبعاد الأحداث وإحيائها.

(١) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

وخيال الطنطاوي في قصص الأطفال خيال إسلامي يربط الأحداث ويعرضها عرضاً جذاباً مشوقاً بعيداً عن الخرافات وما يفسد العقول من حكايات الجن والعفاريت.

والخيال فيها قائم على إبراز قيمة الخير وتجميله وتقبيح الشر وتجريمه. وهي مستمدة من التاريخ، أعمل فيها فكره وخياله؛ لتخرج في هيئة فنية دون خروج على أصلها التاريخي، وبذلك كان معتدلاً في خياله لا يجنح إلى الحد الذي يخرج به عن الإقناع إلى الشك بل كان حريصاً على تأكيد واقعيتهما وصدقها لغة وشخصيات، وزماناً ومكاناً. كما كان قريباً في تصويره ليتناسب مع إدراك الطفل؛ ولذلك كثر اعتماده على الصور الأدبية ذات الألفاظ المثيرة للمعاني الحسية؛ لصعوبة إدراك الطفل للمعاني المجازية التي تحاشاها، وإن أتى بشيء منها فسرّه بالهامش.

من ذلك قوله حكاية عن الأخ الصغير: «رجعنا من تجارة لنا، فتظاهر بالورع، وقسم المال بيني وبينه، ولكنه أبقى مالي معه، يزعم أنه يحفظه لي، وواطأ جماعة من اللصوص، فطرقونا ليلاً، وهجموا علينا ذبحاً وجرحاً، ثم هربوا وهرب معهم وتركني ملقى مع الأموات لا مال لي ولا ظهر»^(١).

فيشير في الهامش إلى أن المقصود بالظهر: الدابة.

(١) وزارة بعثتود عنب، علي الطنطاوي، ص ٣٥، ٣٤.

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

وفي قصص الطنطاوي الاجتماعي يبرز دور الخيال في كشف انفعالات النفوس ومشاعرها اعتماداً على التصوير والإيحاء الذي يسهم في رسم ملامح الشخصيات وأبعاد الأحداث.

من ذلك هذه الصورة في قصة «بنات العرب في إسرائيل» لموقف الفتاة في مدافعتها اليهود وعجزها عن ذلك بما لها من مرارة وألم وحرقة عكستها دلالات الألفاظ بالحركة واللون والصوت والإيقاع. يقول الطنطاوي حكاية عنها:

«قالت: وجعلت أعدو حافية وقد سقط الحذاء من رجلي على التراب والشوك حتى لحقوا بي وأعادوني.

ورجعت أدافع فأحسست غرز إبرة في يدي ثم لم أعد أشعر بشيء!.

وسكنت لحظة؛ وكادت من الحياء يدخل بعضها في بعض، وصار وجهها بلون الحمرة، ثم تكلمت بصوت خافت كأنه آهات مكتومة لم أتبينها حتى دنوت منها، ولفحت أنفاسها الحرى وجهي»^(١).

فهذه لوحة تصويرية غزت كل منافذ الإدراك الحسية للمتلقى؛ لتنتقل حية إلى وجدانه، وتقع من نفسه موقعها في نفس الأديب في انفعاله وإحساسه بها.

(١) قصص من الحياة، علي الطنطاوي، ص ٢٥.

فكلمة «أعدو» تجسد سرعة الحركة بلفظها وإيقاعها قبل مدلولها ومعناها، لما في اللفظة من خفة وجريان على اللسان حيث يتبع السكون الحركة مباشرة.

وكلمة «حافية» تؤكد حرصها على هذه السرعة؛ حيث تكون أخف وأسرع بعيدا عن إعاقه الحذاء وثقله.

وكلمة «على التراب والشوك» تعكس صلابه هذه الفتاة، وإصرارها على الهرب، وتحملها في سبيله الألم.

و«حتى لحقوا بي» تفيد «حتى» الجهد والتعب من جانبهم، فلم تكن غاية سهلة. و«لحقوا بي» تفيد كثرتهم واستهذافهم لها مما يزيد من مشقتها وخوفها، فليس من يلحق بها واحد أو اثنان يسهل الخلاص منهما.

وكلمة «ورجعت أدافع» تدل كلمة «رجعت» بإيقاعها وجرسها قبل مدلولها على الثقل وصعوبة الرجوع إلى المدافعة ثانيا بعد فقد الجهد في المدافعة الأولى. كما تعكس استماتتها في الدفاع المرة تلو المرة.

وإيقاع كلمة «رجعت» نفسه وتتابع الحركات وحشجة الجيم في الفم أثناء النطق يعكس ثقل هذه اللفظة في النطق^(١) بالإضافة إلى الثقل الملقى على النفس من معناها هنا في الرجوع إلى شيء مكروه.

وجملة «فأحسست غرز إبره في يدي» توحى بظلالها إلى ما كانت

(١) مخارج الحروف وصفاتها، للإمام أبي الإصبع السمائي الإشبيلي، ت ٥٦٠هـ، تحقيق د/ محمد يعقوب تركستاني، ص ١٢١، ١٢٥، ط الثانية ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

عليه الفتاة من الانشغال بالمدافعة، والانهماك فيها حتى إنها لم تر الإبرة، ولم تدر متى جهزت، وإنما أحست بغرزها في يدها مباشرة.

«وسكنت لحظة» توحى بالمرارة والحرارة التي جففت حلقها فمنعتهما الكلام، كما تعكس حياءها في التعبير عما حدث، وحيرتها في التعبير عنه. «وكادت من الحياء يدخل بعضها في بعض، وصار وجهها بلون الحمرة، ثم تكلمت بصوت خافت».

هذه كلمات معبرة بظلالها ومدلولها عما يعتلج في نفس الفتاة من حياء وخجل، بدت دلالاته في هذه اللوحة الحسية المعبرة بالحركة واللون والصوت حتى غدا الحياء والخجل ناطقا بتداخل النفس، وانكماش الجسم واحمرار الوجه وخفوت الصوت.

ثم نراه يشبه خفوت الصوت وثقل الإفصاح باللفظ المخزي «بالآهات المكتومة» التي خرجت محملة بلفح من بركان النفس التي تغلي بحرارة ما حدث حتى لفحت بحرهما وجهه.

وهكذا تعانقت العناصر الفنية من الصور الأدبية بأبعادها الشعورية التخيلية والإيحائية للوصول إلى الغاية التي قصدها أديبنا؛ لتعميق الإحساس في النفوس بمأساة هؤلاء الفتيات وما يتعرضن له من تعذيب وإذلال.

كما أن الخيال جسد لنا صورة تلك الفتاة في مدى حرصها على شرفها ودفاعها عنه، وأوقفنا على آلامها وعذابها بفقده في صورة تقطر أسى وحرقة وألم.

المبحث الثالث

خيال الطنطاوي في تراجمه

يقوم الخيال في ذكريات الطنطاوي وسيلة لكشف انفعالاته تجاه ما مر به من أحداث، وتلوينها بلون نفسه دون زيف أو ادعاء؛ لنشاركه الشعور والإحساس بجمال ماضيه أو آلامه.

ويلاحظ أن خيال الطنطاوي في ذكرياته خيال خصب موظف توظيفاً إسلامياً يرفع به من شأن القيم ويجملها ويقبح به الرذائل ويهجنها؛ ولذلك كان يحمل صور توجيهات، ويلتقط من الأحداث دلالات ومعاني إسلامية تعكس حرصه على نقل تصوره الإسلامي لمتلقيه.

من ذلك تصويره لما رآه في مدينة «سورابايا» باندونيسيا^(١).

يقول: «إذا عدت الأيام التي مرت عليّ صفوا بلا كدر كان من أول ما أعد منها يوم نزهة «سورابايا». وهي نزهة أعدتها لنا وأكرمتنا بها الحكومة الأندونيسية، وهاكم بعض خبرها:

(١) هي مرفأ في جاوة، ثاني مدن إندونيسيا (المنجد في اللغة والأعلام، ص ٢١٤).

خرجنا من «سورابايا» فما جاوزنا البيوت حتى رأينا على جوانب الطريق حقولا مغرقة بالمياه، ممتدة على سيف البحر، مقطعة قطعاً محددة بسدود من التراب على هيئة الجدران، وظلال أشجارها طبقات فوق طبقات، وعلى الطريق سقف من أغصانها المتشابكات، يمنع الشمس أن تصل إلينا، إلا نظرات تختلسها اختلاسا من فرج الأغصان، وتسمح للنسيم أن يمسح وجوهنا بيد لينة معطرة، كأنها مس يد الحبيب عند غيبة الرقيب!

وأخذنا نصعد، والطريق يستدير ويلتوي، والقرى المنثورة على السفوح تظهر ثم تختفي كصبية تلاعب فتاها، يلحقها فتزوغ منه، ويهم بأن يدعها فتتراءى له، فهي تطمعه، ولا تطعمه! ثم غاب عنا الجبل الأعظم، فسرنا على حافة الوادي الضيق، ندور بأكمة مخضرة محمرة، كأنها لوحة في بهو، وأين لوحات الأبهاء مما صوره باري الأرض والسماء؟

وأين الصورة الميَّنة من الحقيقة الحية؟^(١)

فالطنطاوي هنا وصف لنا هذا المشهد الرائع في بيان عجيب، أبرز المعاني والأحاسيس المجردة في صورة حية متحركة، تجسدت في الخيال بحركتها ولونها وشكلها الجميل؛ لنرى بذلك جمال صنع الخالق في الكون، وبلغنا إلى قدرة المصور البارئ سبحانه وتعالى.

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١٦٦/٦، ١٦٧.

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

«.. وكانت المشاهد تمر بنا متعاقبة، إذ نمر بها مسرعين، فننتقل من نشوة إلى نشوة، ومن متعة إلى متعة، فلا أدري أيها أجمل في العين وأحلى في القلب! ولكل مشهد قصة تدور بها الألسنة..».

«ومررنا بعده ببلدة قديمة، كانت عاصمة جاوة الإسلامية يوماً، اسمها «سنفوساري» أي الأسد الشجاع، ولها قصة، وكنا نسير بين هضاب متجاورات كلها مكسو بالأشجار المثمرة، والبيوت قد تآثرت عليها بسقوفها المائلة الملونة كأنها بيوت الأطفال عند بيع اللعب، وكل منها لها قصة. والأنهار تجري خلالها صغيرة وكبيرة، مستقيمة وملتوية، رائقة وعكرة، هادئة وهادرة، قد اختلفت طبائعها وغاياتها، فكانها أصناف البشر إذ يمشون على طريق الحياة.

ولكل واد في العين منظر، ولكل بقعة في النفس أثر، وكنا كالطفل المحروم دخل مخزن اللعب، كلما رأى لعبة ظنها تحفة التحف، فقال: هذه التي أريد، فإن رأى غيرها وجدها أحلى منها، فعدل إليها عنها!.

كنت كلما أبصرت مشهداً قلت: قف بي هنا، إن هذا هو أجمل المشاهد، ثم أجوز إلى غيره فأنسى لروعته الأول، وهم يقولون لنا: هذا كله ليس بشيء، فأقول: وما هو الشيء؟ فيقولون: أما مكم.

ورأينا النساء في كل مكان من جاوة - إلا المدن الكبار - يحجبين الرأس بخمار أبيض أو ملون، فلا يظهرن إلا ما أذن بإظهاره، وهو الوجه والكفان، وإن وجب سترهما إن كانت فتنة بهما.

ثم انحدرنا كما سعدنا، وهذه سنة الحياة، ما علا عال إلا نزل، ولا طار طائر إلا هبط، وسلكننا على سهل بين سلسلتين من الجبال: السلسلة التي كنا فيها، والأخرى التي كنا نراها من أمامنا في سهل كأنه سهل البقاع في بلاد الشام، لولا أنه أوسع سعة، وأجمل جمالا.

وجزنا ببلدة كبيرة، اسمها مدينة «باتو: أي الحجر» جالسة على ذيل الجبل الذي نزلنا منه، ممتدة شوارعها في السفح، كأنها فتاة اقتعدت حافة نهر، ودلت فيه ساقها...»^(١).

فالطنطاوي حين يتصل بالطبيعة ليجسد لنا مشهدا من مشاهدها بخياله الخصب ينقل إلينا أحاسيسه ومشاعره بجمال الطبيعة وروعته، ويقف بنا ليشعرنا بدهشته وإعجابه بما أودع الله في هذا الكون من أسرار؛ ليوجهنا إلى عظمة الخالق لهذا الكون المصور لما فيه.

ولا ينسى الطنطاوي في تصويره الفني أن يلتقط من كل مشهد دلالاته ومعانيه الإسلامية التي تدل على تفاعله بالإسلام وتأثره به في فكره وخياله وتصويره.

من ذلك قوله: «والأنهار تجري خلالها صغيرة وكبيرة، مستقيمة وملتوية، ورائقة وعكرة، هادئة وهادرة، قد اختلفت طبعائها وغاياتها، فكأنها أصناف البشر؛ إذ يمشون على طريق الحياة»^(٢).

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٦/ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) السابق، ٦/ ١٦٨.

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

وقوله: «... ورأينا النساء... يحجبن الرأس بخمار أبيض أو ملون، فلا يظهرن إلا ما أذن الله بإظهاره، وهو الوجه والكفان، وإن وجب سترهما إن كانت فتنة بهما»^(١).

وقوله: «ثم انحدرنا كما صعدنا، وهذه سنة الحياة، ما علا عال إلا نزل، ولا طار طائر إلا هبط»^(٢).

فهذه صور حية متحركة أحيها الطنطاوي بخياله الخصب؛ لترسم في الأذهان بأبعادها الأدبية والتخيلية كما ارتسمت في نفسه؛ ولتوحي إلينا بما وقع في نفسه من أسرار الكون؛ حيث لفتنا إلى تغاير مظاهر الطبيعة وتلونها؛ ليشعرنا بعظمة الخالق، وطلاقة قدرته، وكمال إبداعه وحكمته في هذا الاختلاف والتلون والتنوع الذي تستقيم به الحياة، ويظهر جمالها ويقوي الإحساس بها.

تلك هي آية الله في كونه التي لفتنا الطنطاوي إليها من خلال صورته، كما لفتنا إليها الخالق سبحانه وتعالى في قوله جل وعلا: ﴿الْمَرْتَرَانَّ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ۚ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ أَلْوَنٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝﴾^(٣).

(١) السابق، ٦/١٦٩.

(٢) السابق، ٦/١٦٩.

(٣) سورة فاطر الآيتان: ٢٧، ٢٨.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ
السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وفي الصورة الثانية يلفتنا الطنطاوي في أثناء وصفه للنساء إلى الحكم الفقهي في حجاب المرأة المسلمة، والذي يعكس عاطفته الإسلامية، ويعلن عن هويته الفقهية التي يميل فيها إلى التيسير بما فيه سعة من أقوال العلماء مع أخذ الحيطة والحذر.

حيث نراه هنا قد أخذ برأي ابن عباس رضي الله عنه ومن وافقه في تفسير المراد بقول الله تعالى ما ظهر منها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين^(٢)، ثم احتاط الطنطاوي بعد ذلك بقوله «وإن وجب سترهما إن كانت فتنة بهما»؛ ليقترّب بذلك من الرأي الآخر، الذي يقول بوجوب ستر الوجه والكفين مطلقاً، وهو رأي ابن مسعود رضي الله عنه ومن وافقه.

وفي الصورة الثالثة يستشف الطنطاوي من مشهد الصعود والهبوط... ما يوحيه من التعرف على حقيقة الحياة في قلبها وتحولها؛ ليلفتنا إلى زيفها وخداعها فمن عرف حقيقة الدنيا لم يأمن لها ولم يفرح بها.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣).

(١) سورة الروم آية: ٢٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني ٦٠٠/٢، ط دار التراث العربي، القاهرة

١٤٠٧هـ.

(٣) سورة آل عمران من الآية: ١٤٠.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فإذا انكشفت الدنيا للإنسان على هذا النحو وتيقن تلك الحقيقة، هانت عليه، فلم يبال بها أقبلت أم أدبرت، طالبت أم قصرت، وعزت عليه الآخرة؛ لأنه يراها دار الأمان ودار السعادة والاطمئنان، التي تتوق النفوس المؤمنة إليها، وتشتاق إلى التمتع فيها.

وبهذا يتضح دور خيال الطنطاوي الإسلامي الذي قاده إلى استخدام الكلمات الوصفية الموحية ببراعة أفادت في جمال الأسلوب وقوته، تلك التي صورت مشاهد لافتة للنظر مثيرة للإعجاب، دالة على ما في الموصوف من إبداع عجيب، وإيحاء إسلامي جميل؛ ليفتح بذلك أمام القارئ أفاقاً جديدة من التفكير والتخيل، أثرت معانيه، وقوت صورهم، وأبانت عن عواطفه^(٢).

ويأتي الخيال في تراجمه الذاتية الغيرية وسيلة لإبراز المعاني الإسلامية، وتجسيمها في صور حسية تغزو منافذ الإدراك؛ لتستقر في وجدان الإنسان وعقله عن اقتناع ويقين.

ويأتي - أيضاً - وسيلة لنقل وإسقاط الماضي بعبره ودروسه على الحاضر الذي مازال يتكرر فيه أخطاء الماضي وويلاته.

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٤.

(٢) الأسلوب، د/ أحمد الشايب، ص ١٩٥، ١٩٦، ط ٨، مكتبة النهضة المصرية ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.

وبجانب أن هذا الخيال يكشف عن وجهة الطنطاوي الإسلامية، ويبرز عواطفه تجاه القيم أو غيرها، فإنه يضيف على الأحداث والأخبار الحياة، ويبعث فيها الحركة والجدّة، فيشعر المتلقي لها أنه أمام شخصية حية بكل أبعادها. تناولها كاتب يقط. لا أمام ركام من الأخبار الجامدة والأحداث الميتة.

فمن المواقف التي يتجلى فيها خيال الطنطاوي لإبراز القيم، والإشادة بالبطولة والمثل.. ذلك المشهد الذي صور فيه موقف أبي بكر (رضي الله عنه) من بعث جيش أسامة (رضي الله عنه) في الوقت الذي ثار فيه المرتدون، وحار فيه الصحابة. رضوان الله عليهم. أجمعون. فقال:

«قلت وهذا فتح في الإسلام عظيم... فتحه الله على أبي بكر؛ ليكون معجزة من معجزات النبوة، أمده الله أبا بكر بقوة من عنده، فاستطاع أن يقف وحده أمام هذه الجزيرة الهائجة المائجة التي لم تخضع مذ بسط الله أرضها لمخلوق، والتي أعجزت الفاتحين منذ أول الدنيا، وأطمعتهم حتى إذا طمعوا بها أطعمتهم رمالها المحرقة، فلبثوا فيها إلى الأبد، والتي لم تحن رأسها إلا لمحمد بن عبد الله ﷺ.

وقف وحده أمام هذه القبائل المرتدة... وقد انفجرت كما ينفجر البركان، وأخذت عليه كل سبيل، وهتفت به متمردة ثائرة تقول:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورها بكرا إذا مات بعده؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

وحار الصحابة وجزعوا، وقالوا: يا أبا بكر! لا ترسل أسامة بجيشه إلى الشام، فإن معه وجوه الناس وشجعانهم، فاستعن بهم على قتال هؤلاء الذين نقضوا عرى الإسلام، أطفئ به هذه النار التي اندلع لسانها من كل جانب وعمت وانتشرت، ثبت به هذه الأرض التي زلزلت زلزالها واضطربت ومادت... وما نقدر على شيء إذا أخلينا المدينة من هذا الجيش، وما لنا بقتال الروم من حاجة.

وواجه أبو بكر الخطر برأسه، واستقبل التبعة العظيمة، وأنصت الدهر وأمسك كتاب التاريخ بأقلامهم، وعلقوا أنفاسهم ليسمعوا جواب أبي بكر، وكان المستقبل متوقفا على جوابه! فما كان إلا أن قال: ثكلتكم أمهاتكم! أنا أحل لواء عقده رسول الله ﷺ! والله لو جرت السباع برجلي ما فعلت ذلك.

ثم أمضى الجيش وزوده بوصايا ما عرفتها الإنسانية من قبل، كأنما نظر بنور الله إلى المستقبل البعيد الذي تتقدم فيه الإنسانية حتى تعرف قواعد الحرب وتسعى لتطبيقها.

ولم يكن إرسال الجيش مغامرة من أبي بكر كما قال من قال!

فالمغامرة هي الإقدام على أمر مشكوك في نجاحه، وليس عند أبي بكر شك في نجاح شيء فعله رسول الله ﷺ.

ذلك سر من أسرار الإيمان لا يعرفه إلا من ذاقه!.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها

واشتد البلاء، وانتفضت الأرض وزلزلت، وتجراً المرتدون من العرب على مهاجمة المدينة، وازداد الصحابة حيرة وجزعا حتى لقد حار عمر - القوي - وجزع وقال: يا خليفة رسول الله! تألف الناس وارفق بهم... ولكن نفس أبي بكر - معجزة الله في النفوس - لم تعرف الحيرة ولا الجزع. فقال أبو بكر:

ماذا يا عمر؟ رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك! أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ لقد تم الدين وانقطع الوحي، أو ينقص وأنا حي؟.

ثم قال الكلمة الحاسمة في التاريخ الإنساني.

الكلمة التي أنشأت الحضارة الإسلامية، الكلمة التي بنت دولا وهدت دولا، وثبت الله بها الإسلام، فكانت من آيات الله المبهرة على نبوة محمد ﷺ ومر عليها إلى اليوم ألف وثلثمائة وواحد وأربعون عاما، ولم تفقد بعد روعتها، بل هي جديدة حية في نفس كل مسلم كأنما نطق بها الصديق الأعظم أمس! قال: والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف، ولو تخليتم عني لجاهدتهم وحدي.

ثم خرج إليهم بنفسه، ورتب الجيوش لقتالهم، فلم تكن إلا هنيات حتى خضعت الجزيرة المرة الثانية في التاريخ، ثم أخضعت - إذ خضعت - للحق - العالم.

أما إنني لست أعرف فيما قرأت من كتب التاريخ عظيما من العظماء في أمة من الأمم وقف مثل موقف أبي بكر، وقد يقف رجل

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

أمام أمة يقاتلها وتقاتله باللسان والقلم، ثم لا يبالي أظفرت به أم ظفر بها، وقد يقدم فارس شجاع على جيش كبير فيقاتل مستميتا ثم يقتل ولا يصنع شيئا، أما أن يقف رجل واحد أمام أمة تائرة على مبدأ من المبادئ تدافع عن عقيدة استقرت في نفوسها، وخالطت دمها ولحمها، وجردت للدفاع عنها سيوفها وألسناتها، وباعت في سبيلها حياتها، ثم تكون له الغلبة على أجسامها حتى تخضع له، وعلى قلوبها حتى ترجع عن عقيدتها... فأمر لم يقع. بعد الأنبياء والمرسلين. إلا لأبي بكر.

وقد يكون في أمة رجال أشداء ذوو صلابة وعزم، ومضاء وحزم، يقدمون على العظام، ويصمدون للشدائد، ولكني لا أعرف عظيما من العظماء في أمة من الأمم ينازل وحده أمة، ويغلبها ويقوى عليها، وينزل به ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، فلا ينال منه ولا يميله، حتى إذا زالت الشدة، وأصبح سيد الشام والعراق غدا فرعى غنم أهله، وحلب للحى أغنامهم، وقال للجارية التي ظنت أنه لن يفعل: بلى لعمرى لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه.

رحمك الله يا أبا بكر ورضي عنك! فإنك عظيم من العظماء، وإنما العظيم عظيم في الناس»^(١).

فهذه الوقفة التحليلية من الطنطاوي لموقف أبي بكر رضي الله عنه من المرتدين تحمل في ثناياها قيما عظيمة وتجسد معاني جلية، لعل من

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص ١٨١، ١٨٢.

أبرزها التأكيد على قوة النفس بإيمان القلب، تلك القوة التي لا تخضع لحسابات العقل، ولا تأبه بمخاطر الدنيا في سبيل إقامة الدين والعدل.

وقد جسد الطنطاوي هذا المعنى في صورة أديبة وتخليية حية سمت في سماء البيان؛ لتجسد تلك القيمة، وتبرز قوة ومضاء العزيمة في مواقف أبي بكر رضي الله عنه النابعة من عمق الإيمان وكمال الامتثال لله، ولرسوله ﷺ.

كما ظهر من خلال عرض الطنطاوي لهذا الموقف وتعليقه عليه شدة انفعال نفسه به وقوة عاطفته المحبة للإسلام ورجاله، هذا الإحساس الذي نقله إلينا وملاً نفوسنا به، والذي كان مبعثه فضلاً عن جمال الصورة، صدق الانفعال وقوة الإحساس، والإيمان بما يقول، والذي عبر عنه الأستاذ / محمد سعيد المولوي بقوله: «على أن أكثر ما يثير الانتباه في عرض الصورة الفنية عند الطنطاوي أنه يشرك نفسه في الصورة ويجعلها جزءاً منه، وهو بذلك يختصر مسافات التأثير فلا ينتظر أن تبلغ الصورة غايتها، بل يطرح عواطفه ومشاعره وأفكاره ضمنها، فيقدم الغاية وردة بين الورود، ولكنها تتميز عما سواها في أنها متفتحة طيبة الأريج، فحين يدخل الطنطاوي عواطفه يستثير عواطفنا، فتحس إحساسه، ونشعر شعوره فلا ننتهي من قراءة الصورة حتى تكون قد بلغت غايتها التي صاغها المؤلف من أجلها»^(١).

(١) الأدب الإسلامي «الصورة الأدبية الفنية في أدب علي الطنطاوي» ص ٤٨، العددان (٢٤-٢٥)

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

والطنطاوي بخياله الإسلامي الوثاب يجسد المعاني الإسلامية، ويبرز الأحاسيس الداخلية لشخصياته، فتبدو من خلال عرضه بكل ملامحها وأبعادها النفسية والجسدية والأخلاقية واضحة، وكأننا نطل عليها من قريب؛ لنراها في بيئتها وعصرها بأقوالها وأفعالها وحركاتها وسكناتها دون حجب أو ستار.

من ذلك، هذا المشهد الناطق بعظمة عمر رضي الله عنه في انتظاره خبر الجيش في معركته مع الفرس، والمجسد لقلقه وإحساسه بالمسؤولية، وتواضعه وورعه. يقول الطنطاوي:

«أرسل عمر الجيش مع سعد، وأقام ينتظر خبره على أحر من الجمر، وأحد من السيف، فأبطأ عليه خبر الفتح، وجزع عمر القوي واضطرب، وأضحى كالأب المدله يستخير عن ولده، والأم تسأل عن وحيدها، فكان يخرج كل صباح إلى أطراف الحرة، ثم يوغل في الصحراء، يرقب الأفق، عله يرى رسولا فيعلم منه علم القوم، وينتظر إلى أن تلتهب الأرض، ويتسعر النهار، فيعود إلى المدينة ينظر الصباح الآتي؛ ليخرج فيأخذ خبراً، أو يرى مخبراً، لم يكن يطيق البقاء وجيوش المسلمين تغامر أعظم مغامرة حربية، تهاجم إمبراطورية الفرس؛ لتفتح بلادها، وما ذلك بالشيء القليل، ولا هو بالأمر السهل، إنها تحارب أقوى قوة عسكرية وأعز حكومة وأشدّها، فهل أظفرها الله بها، أم نالها منها سوء؟ هذا ما كان يفكر فيه عمر ولا يقر له قرار حتى يعلمه.

وبينما كان عمر على شاطئ الصحراء ينتظر كما ينتظر كل يوم، إذا هوى رايه يطلع عليه من الأفق البعيد من جهة العراق، أهو البشير الذي يحمل نبأ الفتح، أم هو الناعي الذي يجيء بخبر الهزيمة؟ لم يتمالك عمر أن يقف مكانه، فسعى إليه، حتى إذا بلغه سألته عن الخبر، فقال: هزم الله العدو. فأشرق وجه عمر رضي الله عنه وخالط السرور حبة قلبه، فجعل يسير إلى جانبه يسأله وهو يخب، والرجل راكب، يجيبه جواباً مقتضياً، لا يحفل به، ولا يأبه له، وما له ولهذا السائل! إنما جاء البشير ليبشر أمير المؤمنين!.

فلما دخلا المدينة، ورأى الرجل الناس يسلمون على عمر ويهتئون به، انخلع قلبه من الخوف، ونزل يعتذر إلى أمير المؤمنين، فلا يطاوعه لسانه على الكلام، يرتقب أن يأمر به عمر، فيضرب أو يعاقب على ما أتعبه وأعرض عنه، وإذا بعمر العظيم يطمئنه ويؤنسه، ويقول له: لا عليك يا أخي! ^(١).

فبهذا الخيال المصور والعرض المشرق ظهرت العواطف الداخلية لعمر رضي الله عنه ممتزجة بصورته الخارجية الحسية القلقة المضطربة التي دلت على مدى انشغاله برعيته، وحرصه على جنوده، وحبهم، ورحمته بهم.

كما أبان عن عظمة عمر رضي الله عنه في تواضعه الواضح و«بساطته» التي جعلت هذا الجندي لا يعرفه من الرجل العامي وهو خليفة المسلمين.

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص ٢٢، ٢٤.

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

كما أبرز هذا التصوير ما يعتل في صدر هذا الجندي من مخاوف وهلع وترقب لوقوع العقاب فأمسك لسانه عن الاعتذار ولم يطاوعه على الكلام.

كما جسدت هذه الصورة رفق عمر رضي الله عنه وسعة صدره في العفو عن أصحاب الأعداء، بما ينم عن ورع جم وخلق كريم.

وبذلك يتضح دور الخيال في تكوين الصورة التاريخية عند الطنطاوي وتوجهه الإسلامي فيه، ذلك التوجه الذي لا يجنح به بعيداً عن الحقيقة، وإنما يستخدمه بمقدار ما يحقق المقصود من بيان الانفعالات، وإظهار العواطف، وتوضيح الأبعاد والمسافات الوجدانية والسلوكية في الأحداث، والتي تدرك من خلال تراكيب النصوص وسياقها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الطنطاوي قد استخدم الخيال في تراجمه وسيلة إسلامية أسهمت في عرض الأخبار بعد تنسيقها وترابطها عرضاً أدبياً، جسد المعاني وأبرز القيم في توازن لا يخفي صدق الحقيقة التاريخية ولا يغفل جمال الصورة الأدبية.

فالخبر حين نقرؤه في كتب التاريخ نمر عليه مروراً عابراً، لا نلتفت إلى ما فيه من عظمة، ولا ما يحتويه من جمال، ولا ما يدل عليه من بطولة، حتى إذا ما تعامل معه كاتب يقظ بخياله الخصب كالطنطاوي ملأه عظمة، فأبصرنا ما فيه من قيم، ورأينا ما يحتويه من بطولة، وتبيننا دور الخيال والوجدان الإسلامي في إحياء الشعور وتنبيه النفس إلى العظمة والقيم، والجمال والإبداع.

يقول الطنطاوي مصوراً حدث الهجرة النبوية:

«نحن الآن في مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك، بين الإصلاح والجمود، بين محمد وقريش، وبذلت قريش مالها، وقدمت دنياها في شيء واحد: هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا.

قال محمد: افتحوا لي الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء، فأنصر الضعيف، وأنجد المظلوم وأعيد للبشرية كرامتها، وللعقل سلطانه.

قالوا: لا!

قال: افسحوا لرسالتي لتتطلق في الزمان، فإنها ليست لبلد واحد، ولا ليوم واحد.

قالوا: لا، ولكن تعال نملكك إن شئت علينا، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيد هذا البلد كله.

وسخر التاريخ من قريش... يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض، وزعامة الدنيا، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز: كنوز المال، وكنوز العلم، ويمنحهم ما يملك كسرى وقیصر، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية النائمة بين جبلين وراء رمال الصحراء.

وانطلقوا يؤذونه ويتوعدونه لعل الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب. ورموا في طريقه الشوك وهو ماش، وألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد، ورموه في الطائف بالحجارة، وأسألو دمه وهزئوا به، وسلطوا عليه سفهاءهم.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

فلم يثر هذا كله غضبه، ولكن أثار إشفاقه.. إشفاق الكبير على الأطفال المؤذنين، والعاقل على المجانين، وكان جوابه: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»^(١).

فهذه هي الفنية في معالجة التاريخ، والبراعة في تناوله بخيال يحرك الحدث، ويصب فيه الحياة، فيبدو ماثلاً أمامنا نشاهده في حركته وسيره بأبعاده ودروسه، ونتأججه ومزاياه؛ حيث نقلنا الطنطاوي على جناح الخيال إلى مكة؛ لنشاهد عن قرب الحرب القائمة هناك؛ لأنها ليست حرباً عابرة كالتى كانت تقوم بين الحين والآخر، بل هي حرب عظيمة بين التوحيد والشرك، بين الصلاح والجمود، بين محمد ﷺ وقريش، معركة بين الحق والباطل، استخدم فيها أهل الباطل سلاحين عظيمين لم يخطئاً أبداً: سلاح الترغيب بالمال والملك والسلطان، وسلاح التهيب بالإيذاء والتسفيه والرمي بالحجارة.

ومع ذلك فشلت محاولات قريش في ثني النبي ﷺ عن دعوته، واحتارت قريش في ثبات النبي ﷺ وحق لها أن تحتار؛ لأنها ما فهمت طبيعة دعوته، ولا غاية رسالته، ولا نبيل هدفه إلا متأخراً بعدما انتشرت دعوته في الآفاق، واجتاحت أطراف العالم تبدد ظلامه، وتقوم ميزانه، وترفع أركانه بعدما قد هوت تحت أقدام الموحدين.

حينها أدركت قريش سفهها، وأبصرت حمقها، فسخرت من نفسها قبل أن يسخر منها التاريخ الذي ضحك من جهالتها وقسوتها بقدر ما تعجب

(١) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي ١/ ١٥، ١٦.

من حلم محمد ﷺ وصفحه حين قابل إساءتها بالإحسان، وإيذاءها بالدعاء لهم والشفقة عليهم ملتصقا لهم العذر «بأنهم لا يعلمون».

وقد اختار الطنطاوي لبعث صورته التاريخية ألفاظا مثيرة للخيال، وعبارات موحية ومؤثرة أسهمت في اكتمال أبعاد الصورة وتعميق الإحساس بها.

يقول: «وبذلت قريش قوتها، وبذلت قريش مالها، وقدمت دنياها كلها في شيء واحد! هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا»^(١).

فهذه العبارات تعكس في وضوح الحالة النفسية لقريش، من الرغبة العمياء التي تدفعها للسعي الحثيث في منع هذه الدعوة، كما توحى بمدى الخوف المسيطر على نفوسها، وشدة الفرع والقلق من انتشار هذه الدعوة ونجاحها.

كما أبانت عن سفاهة قريش ونظرتها الضيقة في محاربة الخير والهدى.

وقد جسدت هذه الصورة قيما إسلامية عظيمة، تمثلت في اندحار أهل الباطل وضعفهم إذا ثبت أهل الحق، وأظهرت عظمة النبي ﷺ في إخلاصه لله وثباته على دعوته وإعراضه عن زينة الدنيا وشهوات الحياة، كما أبانت عن جانب هام من أخلاق الداعية ممثلا عمليا في رفق النبي ﷺ وعفوه وإصراره وصبره.

(١) رجال من التاريخ. علي الطنطاوي / ١ / ١٥.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

كما كشفت هذه الصورة عن طبيعة المعارك بين أهل الحق وأهل الباطل، وأسباب الانتصار، وأساليب الإغراء..

كما يبدو دور الخيال الإسلامي الفاعل في تعليقات الطنطاوي واستلهاماته من معطيات الأحداث ما يتلاءم مع الشخصية ويضيء الحدث، كاستنباطه للأسباب التي دعت النبي ﷺ إلى الهجرة بعد أصحابه مختفياً عن أعين المشركين بما يتوافق مع شخصيته ﷺ، وينبئ عن كمال حكمته وعظمته، قال:

«... تأخر محمد كما يتأخر الربان الشريف على ظهر الباخرة الميؤوس منها، فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً، وكما يتأخر الراعي الأمين عند المفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله. تأخر يحمي أتباعه، ويستقبل بصدرة الخطر»^(١).

هذا عن سبب تأخر النبي ﷺ في هجرته، أما عن سبب اختفائه، فيقول:

«وهاجر مختفياً مع صفيه وخليله شيخ المسلمين أبي بكر، لم يخف من ضعف ولا جبن، ولكنه كان كالقائد المسافر؛ ليدبر المعركة الكبرى، فهل يظهر نفسه ويقف على الطريق ليحارب فصيلاً لحقت به، فيظفر عليها ويعطل المعركة الكبرى؟

(١) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي ١/ ١٧.

إنها تنتظر محمدا معارك أكبر، تنتظره بدر، والفتح، وهوازن، والقادسية، واليرموك، وجبل طارق، ومعارك الفتح الإسلامي، التي امتدت من بعد.. سلسلة مظفرة خيرة، نثرت شهداء الحق في كل أرض، ونصبت راية العدل على كل جبل، وأضاءت بالإسلام القلوب والبلاد في كل مكان، وتنتظره المعركة مع الجهل والفقر والظلم والفسوق، وسائر الأضرار الخلقية التي جاء ليظهر المجتمع البشري من آثارها»^(١).

فهذه التعليقات نقلت إلينا عبر الخيال المصور. إحساس الطنطاوي العميق ووجهته الإسلامية الصادقة في تناول التاريخ ودلالات أحداثه بما يتناسب مع شخصياته، ويتلاءم مع أخلاقها وتاريخها الثابت.



(١) السابق ١ / ٣١.

المبحث الرابع

خيال الطنطاوي في مقالاته

الخيال في مقالات الطنطاوي:

يلاحظ أن خيال الطنطاوي في مقالاته خيال مطلق الحركة والنشاط، وهو في انطلاقه هذا ملتزم بقيم الإسلام ومساره، حيث يتكئ فيه على أصول دينية، ويصدر عن ثقافة إسلامية تعصمه من شطحات الخيال المبهمه، وسقطات الفكر والأهواء المضللة.

فالخيال في مقالات الطنطاوي وسيلة إسلامية، يدفع بها النفوس للتعرف على أسرار الكون والنفس والحياة، دون تمويه أو تلفيق.

يقول الطنطاوي من مقال «إلى السلاح يا عرب»: «... ألا يكون أحدكم مرخى الأعصاب، خامل الجسد، قد خدره النعاس حتى ما يقدر أن يفتح عينيه، فيعدو عليه عاد، أو يطرقه لص، أو يحقره إنسان فيشعل الغضب في دمه ناراً، أو يشد من أعصابه أوتاراً، فيثب يريد أن يقتحم الجدار أو يخوض النار؟»

ألا يكون أحدكم تعبان كسلان يجر قدميه من الونى جراً، يظن أنه سيسقط من كلاله على الأرض، فيلحقه عدو فاجر أو يطارد وحش

كاسر، فإذا هو ينطلق انطلاقاً القذيفة من فم المدفع، ويعدو عدو الغزال المروع؟

هذه - يا أيها الناس - القوة المدخرة في أعصاب الإنسان يظهرها الأمل، ويبديها الغضب، ويبعثها الخوف. وفي الأمام قوة كهذه القوة، وما الأمة إلا أفراد الأمة، أنا وأنت وهم وهن! أفلا تحس إذا غضبت أو فرحت أو جزعت أن نبضك يسرع، وقلبك يخفق، ووجهك يصفر ويحمر، وجسمك كله يتبدل ويتغير؟ فكذلك الأمام.. تكون الأمة نائمة آمنة قد غلب عليها الخمول، وشملها الارتخاء، فما هي إلا أن يبعث الله لها القائد العبقري يصرخ فيها ينذر لها خطراً، أو يحذر لها عدواً، أو يعدها نصراً مؤزراً.. حتى تثب كما تثب الجندي المستريح إلى سلاحه، فتعمل العجائب، وتصنع المعجزات، وتدع التاريخ حائراً من فعلها مشدوها...»^(١).

فهذه صورة كلية أبرزت الطاقة الكامنة في النفس الإنسانية، ومثيراتها الخارجية، التي تحولها إلى طاقة هائلة، لو وجدت من يحسن توجيهها، لصنع بها العجائب وأتى بما يدهش التاريخ.

هذا المعنى نقله إلينا عبر الخيال المصور، حيث حاول في هذه الصور حمل المتلقي على مشاركته إحساسه، بجعله يستحضر معه ما يشعر به في نفسه من صور مثلاً له بأبعادها الشكلية والحركية من خلال ألفاظ موحية وعبارات مصورة، لا تكون إلا من وحي الموهبة،

(١) هتاف المجد. علي الطنطاوي، ص ٨٧.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

والهام الطبع، حتى ليخيل إلينا أن الألفاظ والعبارات استحالت مشهداً حياً لشخص واني الجسم، منكش الهيئة، أنهكه التعب وبلغ به الإعياء والكسل، ما جعلنا نشفق عليه حتى إذا اطمأننا لتلك الصورة رأيناها مرة واحدة، وفجأة يعدو مسرعاً في خفة وفزع وهمة ونشاط، وكأنه شخص آخر، فما الذي أثار هذه القوة من مكنها وبعث هذا النشاط فيه؟ إنه داعي الخوف أو الغضب من شخص أو عدو أو حريق.

فهذه الصورة استهدف بها الطنطاوي تعرّف الإنسان على نفسه، وتبنيه إلى قدرته الكامنة التي لو استطاع بعثها لحقق بها ما يريد.

ويلاحظ - أيضاً - سيطرة التوجه الإسلامي على خيال الطنطاوي، من خلال ألفاظه وصوره التي استقاها واستمدّها من القرآن الكريم وثقافته الإسلامية وبيئته العربية.

يقول في مقاله «نهر دمشق» مصوراً عواطفه تجاه هذا النهر الذي امتلأت نفسه بعظمته:

«بردى» سطر من الحكمة الإلهية، خطته يد الله على صفحة هذا الكون؛ ليقراً فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت، وروعة الماضي والمستقبل، واختصت به الأمة العربية، فجمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية متفجرة.

والله الذي جعل الآية المعجزة في القرآن هو الذي جعلها في الأكوان. والله الذي أعجز ملوك القول، وأمراء البلاغة، بسور وكلمات وحروف، هو الذي أعجز قادة العقل، وأئمة الفلسفة، بسور من بحار وأنهار وكهوف.

وما «بردى» إلا سورة من قرآن الكون، وليس إعجازه في أنه يجري، ولكن إعجازه في أنه ينطق، وأن في كل شبر منه تاريخ حقبة من العصور، وتحت كل شبر أنقاض أمة من الأمم، أمة ولدت في حجره، ورضعت من لبنانه، وحببت بين يديه، ثم قويت واشتدت، وبنيت فأعلت، وفتحت فأوغلّت، ثم دخلها الغرور، وحسبت أنها شاركت الله في ملكه، فظلمت وعنت واستكبرت، فبعث الله عليها نسمة واحدة من وادي العدم فإذا هذه العظمة وهذا الجبروت ذكرى ضئيلة في نفس بردى، وأنقاض هينة في أعماقه، وصفحة أو صفحتان في كتاب التاريخ، وإذا بأمة أخرى تخلفها في أرضها، وترثها مالها، ثم يكون سبيلها سبيلها!

ولقد قام الفينيقيون على أنقاض الحثيين، والكنعانيون بعد الفينيقيين، والفرس بعد الكنعانيين، واليونان بعد الفارسيين، والروم بعد اليونانيين، والغساسنة بعد الرومانيين، والمسلمون بعد الغسانيين. ثم قام العباسيون على أثر الأمويين. ثم قام صلاح الدين، ثم جاء الترك بعد السلجوقيين. ثم جاء فيصل بن الحسين، ثم جاءت جيوش الفرنسيين!

هكذا يدور الفلك في السماء، ويدور السلطان في الأرض، فينشأ من القبر الحياة، ويغطي على الحياة القبر، والسلسلة لا تنتهي، والناس لا يعتبرون، وبردى يبتسم ساخرا من غرور الإنسان، ضاحكا من جهالته، يحسب نفسه شيئا، فيصارع الكون، ويتناول بعقله إلى الله،

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

وما هو من الكون إلا ذرة من الرمل ضائعة في الصحراء، وما عمره إلا ثانية واحدة من عمر «بردى...»^(١).

بهذا الجمال في التصوير، والسلاسة في التعبير ينقل إلينا الطنطاوي أحاسيسه ومشاعره الفياضة المتولدة عن رؤيته لهذا النهر العظيم الذي رأى قدرة الله فيه، ولفتنا إلى عظمة الله في إيجاده، مستلهما من تاريخه الدروس والعبر التي توافق تصويره الإسلامي عن قوة الخالق وعظمته، وضعف الإنسان وغروره.

وقد أضفت هذه الألفاظ القرآنية والمعاني الإسلامية على صورته جمالا وجلالاً، وألبستها ثوبا إيمانيا رقيقا، دل على مدى استجابة الطنطاوي في وجدانه، وتأثره في تصويره وخياله بالإسلام، وثقافته العظيمة وكتابه المعجز.

ويلاحظ أن الطنطاوي قد وظف الخيال في مقالاته وسيلة إسلامية كاشفة عما في النفوس، وموصلة إلى الغرض المقصود، بتعبير عفيف له إحياء دقيق، يحقق الغاية منه في سمو وعفة.

فهو حين يكلم الفتاة عن الرجل ليكشف لها عن حقيقته، ويعرّيه من زخارفه، حتى لا تتخدع المرأة بكلامه أو سلوكه عن هدفه وغايته منها. يقول:

(١) دمشق... علي الطنطاوي، ص ٢٧، ٢٨.

«... إي والله! أحلف لك مرة ثانية لا تصدقي ما يقوله لك بعض الرجال من أنهم لا يرون في البنت إلا خلقها وأدبها، وأنهم يكلمونها كلام الرفيق، ويودونها ود الصديق!.. كذب والله! ولو سمعت أحاديث الشباب في خلوتهم لسمعت مهولاً مرعباً، وما يبسم لك الشباب بسمة، ولا يلين لك كلمة، ولا يقدم لك خدمة إلا وهي عنده تمهيد لما يريد، أو هي على الأقل إيهام لنفسه أنها تمهيد...»^(١).

فهذه العبارات (لسمعت مهولاً مرعباً) و(تمهيد لما يريد) بما تثيره في الخيال، وتحركه في الأذهان تسهم في كشف حقيقة نفس الشاب تجاه الفتاة، وتوضح غايته منها، ورغبته فيها بأسلوب عفيف مثير يؤدي المقصود، ويفي بالغرض دون إسفاف أو تدن؛ لتحذر بذلك الفتاة؛ ولتنتبه لما يمكن أن تقع فيه، وقد كشفت لها الحقيقة.

وتبدو إسلامية الخيال في مقالات الطنطاوي بجعله وسيلة فنية للتعرف على الأبعاد الحسية والعلاقات النفسية التي تكتمل بها الصورة المعنوية أو المجردة؛ لتبدو في إطارها الإسلامي الذي يريد به حمل النفس على كمال الإحساس بقبح القبيح وحسن الحسن. يقول الطنطاوي في وصف شاب مخنث:

«كان شاباً متأنثاً قد أصيب بمرض التجميل.. فلم يكن يجيء إلى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس ليوم زفافه، قد صفف

(١) من مقالة «يا ابنتي» صور وخواطر، ص ١٥٠.

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

شعره ودهنه وعطره (ولبده) ^(١) و(عقربه) ^(٢) على صدغيه، وجمل وجهه، وصقله، وصنع به ما لست أدري!

وكان إذا نظر غض الطرف من الحياء، ودانى بين جفونه، وإذا تكلم تكلم بصوت حالم لين كأن ألفاظه تقول شيئاً، ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر! تقول: إن رجولة صاحبي رجولة مزورة!

وإذا مشى تثنى وتخلع وتكسر، وماج جسمه موجاناً، وذهب كل عضو منه في ناحية، كأن جسمه متفكك قد تقطعت أوصاله، وفصمت عراه، وانحلت لوالبه...» ^(٣).

فهذه الألفاظ بدالاتها وإحياءاتها نقلت إلينا صورة كاملة، وإحساساً واضحاً بتأنت هذا الشاب وتخنته القبيح المنفّر.

هذا الإحساس البغيض المتولد من وحي الصورة يتغير إلى النقيض إذا تغير الوصف والقصد. يقول الطنطاوي:

«... ومر شهران، ثم رأيت في مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية يلبس الثوب العسكري وعلى وجهه طابع الرجولة: له شاربان كاملان، وأثر اللحية ظاهر على خديه، والقوة والصرامة باديتان في عينيه وملامحه، وكان قوي النظرات صعاقاً،

(١) لبده شعره أزلقه بشيء لزج أو صمغ حتى صار كاللبد (لسان العرب ج ٥، ص ٣٩٨٥، ط دار المعارف).

(٢) عقرب: شيء معقرب: معوج (السابق، ص ٢٠٣٩).

(٣) بغداد مشاهدات وذكريات. علي الطنطاوي ص ٩٤، ٩٥.

جهير الصوت، ذكياً مقبلاً على الدرس، فطناً أليماً، وكان سريع الحركة، جم النشاط، إذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة، يطأ الأرض وطأً شديداً، وقد نصب قامته، ورفع رأسه، فإذا قام بين يدي قرع رجلاً برجل، ثم رفع يده بالسلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك، بل كما يرفع يده الجندي بالسيف يستله من قرابه! وإذا كلمته أجاب بجرأة وأدب، وكنت أراه في ساحة المدرسة، فأراه على اجتهداه، وإقباله على العلم، قوياً نشيطاً يصارع الطلاب ويباطحهم، فإذا تمكن منهم وعلا عليهم، عفا عنهم، وأبقى عليهم، فكنت أعجب من قوته ونبله، وعلمه وفضله، وأكبر فيه هذه الصفات.

ثم إنني أحببت أن أشجعه وأضرب منه للطلاب مثلاً، فتكلمت وأثنت، وقلت: كم بين هذا وذاك من فرق!

فصاح الطلاب: ومن هذا ومن ذاك؟ إنهما شخص واحد!

قلت: ويحكم! فأني معجزة هذه التي بدلته شخصاً آخر، وأنشأته إنشاءً جديداً!

قالوا: يا أستاذ... إنه تدرب على الفتوة...^(١).

فالطنطاوي بقدر ما قبح طريقة الشاب وسلوكه في صورته الأولى ونفرنا منها، حبه إلينا في صورته الثانية، وقد تغيرت طريقة حياته،

(١) بغداد... مشاهدات وذكريات، علي الطنطاوي، ص ٩٤، ٩٥.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

واستقام سلوكه وخلقه بعد ما تدرب على الفتوة! حيث قد رسمت هذه الألفاظ المثيرة، والعبارات الموحية لوحة كاملة ضخمة، حركت الخيال لرصدها كاملة بأبعادها، وحركت الوجدان للإحساس بها، والانفعال بمعطياتها على نحو ما يريد الكاتب.

وقد رأينا بوضوح كيف وظّف الطنطاوي التصوير والتخيل هنا وسيلة قوية في كشف مزايا «الفتوة» وما أكسبته للشباب من صفات وخصال عظيمة، بما يوضح اتجاهه في تمجيد الفضائل وإبرازها، وتشويه الرذائل وتضخيمها بما يلفت الانتباه إليها وينفّر منها.

ويقول الطنطاوي مصوراً شقاء الفقير في مصر، ومعاناته في الحياة، ليعطّف القلوب عليه ويشعر الأغنياء به، من مقالة «تسعة قروش»:

«.. يخلق مثل (الناس) ولكنه يقعد على الأرض على رصيف الشارع، ويبيده مرآة مكسورة يرى فيها وجهه، والصابون القذر يغطيه، وموسى الحلاق المغلولة تجري فيه، والدم ينبثق من نواحيه، ثم تمر على هذا الوجه البشري ممسحة لا ترضونها أنتم والله لمسح أحذيتكم!.

ويركبون مثلما يركب الناس ولكن على «عربات الكارو» العشرة على متر مربع من الخشب، محمولين على دولابين من الحديد، يسحبهم حيوان هزيل، والعربة ترتج بهم، فترقص معدهم وتزلزل أمعاءهم، ثم لا تصل بهم إلى نهاية الميل الواحد إلا بعد ساعة، ولهم قهوات.. ولكن قهواتهم اصطبلات فيها ركائز تسمى مناخذ.

أمامهم عيدان تدعى كراسي، ولهم مطاعم، ولكن مطاعهم يقدم فيها المرض في طباق قذرة...»^(١).

فهذه الصورة أبرزت المعنى الذهني المجرد لشقاء الفقير ومعاناته في صورة حسية واضحة، جسدها الخيال فبدت للعين، وأدركها الحس وانفعل بها الوجدان، وتألم بها الإحساس اليقظ في تقصيره في حق الفقير.

وقد استقى الطنطاوي عناصر صورته من الواقع المحسوس الذي أضفى عليها من أحاسيسه ومشاعره وانفعالاته ما جعلها حية نابضة تشعرنا بالمعاناة والقشعريرة، والامتعاض والاستياء من تلك الحال.

فإذا قال الطنطاوي مخاطباً الأغنياء بعد ذلك: «فتداركوهم قبل أن يكفروا بالإنسان فينقلبوا حرباً عليه، حرباً ليس معها أمان، أشعروهم أنه لا يزال في الدنيا فضل وعدل ونبل، ليُجدَّ كل واحد منكم على من هو دونه، لا بالمال وحده، بل بالعاطفة والتواضع والإنسانية...»^(٢).. وجد استجابة أو قبولاً لدى أولئك الأغنياء الذين تفاوتت بينهم وبين الفقراء في مصر مسافات طاغية، تنذر بالخطر والخوف الشديد الذي استشعره الطنطاوي بحسه، وأراد أن ينقله إلى الأغنياء لعله يجد آذانا مصغية، فلما صمّت الآذان وقع ما كان يحذره.

(١) صور وخواطر. علي الطنطاوي، ص ٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

فقد كتب هذه المقالة سنة ١٩٤٨ م، أي قبل قيام الثورة، فكانها كانت قراءة للواقع واستشرافاً للمستقبل.

وقد تعانقت هذه الصور الجزئية في ترابط وتسلسل؛ لترسم هذه اللوحة التي تقطر شقاء وتنزف ألماً.

فكلمة «يقعد على الأرض» و«على رصيف الشارع» تشير إلى الاستكانة والمهانة التي يعيش فيها. وكلمة «وبيده مرآة مكسورة»، تعميق لهذا الشعور المستكين؛ ليرى فيها ما ذا؟ «وجهه والصابون القذر يغطيه» صورة مستبشعة لتغطية الصابون القذر لوجهه وما توحيه كلمة «قذر» من سوئه واختلاطه بما أفسده، ولكن ما الحال إذا كان صابون الفقير قذراً، وقد صنع الصابون لإزالة القذارة! وكلمة «وموسى الحلاق المغلوله تجري فيه» تجسيد لحركة تلك الموسى الرديئة في جريانها في هذا الصابون القذر!.

وكلمة «الدم ينبثق من نواحيه» تبعث في النفس صورة الدم وحمرة وخروجه مندفعاً من جنبات الوجه، وكأنه جزار يسلم ذبيحته.

وكلمة «ثم مرّ على الوجه البشري ممسحة لا ترضونها أنتم واللّه لمسح أذيتكم» تطلق الذهن ليتصور ويستحضر ما يشاء من بشاعة وقذارة هذه الممسحة التي يأنف الغني من أن تكون ممسحة لحذائه، وقد جعلها الفقير ممسحة لوجهه؛ لفقره وقلة حيلته.

وكلمة «البشري» تثير في النفس الشفقة والألم لهذا الفقير! إذ هو ممن كرم الله! وهكذا توحى كل كلمة بما يعمق هذا الشعور بالمذلة والمهانة ويصور هذا الألم بالمعاناة والاستكانة.

وقد تكافئت كل كلمة بدلالاتها وإيحائها في تشكيل هذه الصورة الكلية الباكية المؤلمة، ورسم ملامحها التي تنطق بالألم وتعتصر بالمرارة وتجسد شدة المعاناة.

«القعود على الأرض، وعلى الرصيف، المرأة المكسورة، الصابون القذر، موسى المغلولة، الدم المنبثق من الوجه، الممسحة التي لا ترتضي لمسح الأحذية، العربية «الكارّو»، جلوس العشرة على متر من الخشب، الحيوان الهزيل، ترقيص المعد وزلزلة الأمعاء، قهواتهم اصطبلات، كراسيهم عيدان، أطباقهم القذرة يقدم فيها المرض!».

فهذه الكلمات مجسدة لأجواء المهانة، ناطقة بالمرارة، تعكس عاطفة الطنطاوي الإسلامية في استعطافه للقلوب، وإثارته لنوازع الشفقة والإحسان إلى هؤلاء الفقراء، سوى أن كلمة «ترقص المعدة» فيها من الدلال ما لا يتناسب مع أجواء شقاء الفقير ومعاناته التي قصد نقلها إلينا وإثارتها فينا.

ولعله قصد ترفض معدهم أي تحطّمها وتفرّقها؛ إذ إن رفض الشيء: ما تحطّم منه وتفرّق^(١)، وهذا المعنى يتناسب مع هذه الأجواء ويتوافق مع السياق، ولعل الكلمة صحفت عن هذا الأصل.

ومن تلك الصور القريبة المستمدة من الواقع والتي أسهم الخيال فيها بدوره الإسلامي في تقبيح القبيح وتجميل الحسن وإبرازه، قوله في إحدى مقالاته:

(١) لسان العرب لابن منظور ج ٢، ص ١٦٨٩، دار المعارف.

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

«ذلك ليعلم طلاب الأدب أن الذي يخرج من القلب هو الذي يقع في القلب، وأن من يمتلكه المعنى الذي يكتب فيه، هو الذي يملك به الذين يقرؤونه، أما الذي ينحت الألفاظ من أعماق القاموس بالمعول ليكومها على الورق بالمجرفة، فهو عامل في إصلاح الطرق، وليس صائغا لجواهر الكلام...»^(١).

هاتان صورتان: الأولى لصدق الأديب وأثر صدقه. والأخرى لاصطناع الأدب وعاقبته. وقد برع الطنطاوي في أن يبرز هذه المعاني المجردة في لوحة فنية جسدت المعنى وعمقت إحساسنا به، فلمسنا مواطن الجمال والقبح فيه.

وقد تعانقت الصورة الأدبية بأبعادها الحسية مع الصورة المجازية بأبعادها التخيلية، فبدأ المعنى واضحا في الأذهان، مستقرا في الوجدان.

فكلمة يخرج من القلب... يقع في القلب، تجسد الحركة في تردها بين سهولة الخروج وقوة الوقوع.. كما تبرز القوة من الصوت المستفاد من مدلول «كلمة يقع» التي تقرع الأذن بجرسها القوي قبل مدلولها الذهني؛ ولذا فتعبيره بلفظة «يقع» أدل في أداء المعنى على تمكن الشيء وكمال التصاقه.

وكلمة: «وأن من يمتلكه المعنى الذي يكتب فيه هو الذي يملك به

(١) من مقالة كتاب تعزية، صور وخواطر، ص ٢٧٤.

الذين يقرؤونه».. تصوير ذو أبعاد شعورية وتخيلية منحت المعنى طرافة ووضوحاً وثراءً جسد فيه المعنى - المجرد - سيداً مالكا مسيطراً. والكاتب الذي يستهويه هذا المعنى ويؤمن به عبد مطيع له لا يخرج عليه، ولذلك إن أراد منه شيئاً أخذه من وجهه الذي يرضيه ويعليه، فلا تجد له اعتداء عليه أو خرقاً له أو تفلتاً من نظامه.

هذا المدلول التخيلي المجسد للمعنى بدا في جمال ووضوح؛ ليبين صلة الأديب الموهوب بمعناه الذي جعله مالكا له مسيطراً عليه؛ لإيمانه به.

فإذا كانت هذه هي علاقة الكاتب بمعناه من التجميل والتعظيم وحسن التأتي، لم يخل عليه بدلالته، بل يمنحه من مكانه ما يمتلك به قراءه.

فهذه الصورة بمدلولها الحسي والإيحائي جسدت المعنى للأدب الحقيقي الجميل الذي لا يخرج إلا عن إيمان صادق، ووجدان حي متأثر؛ ليمتلك بعد ذلك القلوب.

وبمقابلة هذه الصورة للأدب الحق، يرسم لنا الطنطاوي صورة أخرى منفردة للأدب الزائف، معتمداً على مدلول الكلمات وإيحائها في تصوير ثقله وسخافته.

فكلمة «ينحت» تعطي بمدلولها الذهني إحساساً بصعوبة هذا العمل ومشقته، كما توحى بصوت النحت المؤلم للسمع باحتكاكه وضجيجه المستمر وصيغة المضارع تدل على الاستمرار. ويأسناد «النحت» إلى

الفصل الرابع : مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

الألفاظ» يتحرّك الخيال؛ ليجسد مدى مشقة ما يعانيه فاقد الموهبة، ومدعي الأدب من صعوبة وتعسر في صياغة الألفاظ وتأليفها، وما يكون لهذه الصياغة المجهدّة من وقع سيئ، يؤلم الأذن ويكره السمع.

فإذا كان هذا النحت من «الأعماق» دل على عظم المشقة والعناء في التأليف، لما تشكّله لفظة الأعماق من البعد والاستقصاء.

وكون هذا النحت للألفاظ «بالمعول» الذي لا يرتبط في الذهن إلا بالهدم والتكسير، عمّق الإحساس والشعور بصلاصة وجمود هذه «الصياغة» التي تحطم وتهدم الأذواق بجمودها وثقلها.

وكلمة «ليكومها» تدل بجرسها وحروفها وشكلها وحركتها على التداخل والاختلاط، قبل أن تدل بمدلولها الذهني على فقد التناسق والنظام.

فإذا كان هذا التكوين كتابة على «الأوراق» جسّد ما كانت عليه الكلمات والألفاظ من تفكك وتنافر واختلاط...

فإذا كان هذا التكوين «بالمجرفة» التي استعارها «للقلم» بقرينة على «الأوراق» والمجرفة ترتبط في الذهن بجرف القمامة والأوساخ.. دل هذا على ما تكون عليه تلك الصياغة حينئذ في كونها من قبيل ما يجرف من قمامة وأوساخ، وحينها لا يسمى هذا أديباً ولكن يسمى عاملاً «لإصلاح الطرق».

فهذه صورة متنامية أسهمت كل كلمة فيها في تجسيد ثقل الأدب المصطنع، وخطورة أدياء الأدب في تشويه صورته، التي تحطم الأذواق وتهدم الفكر.

وعلى ذلك يمكن القول: إن الطنطاوي في صوره لا ينقل عن الواقع فحسب، بل يضيف على صوره من أحاسيسه، ويخلع عليها من خواطره ومشاعره المفعمة بقيم الإسلام ما يثبت فيها الحركة والحياة والطرافة والجدة.

كما يتضح من ذلك قدرة الطنطاوي الفاتقة على تصوير المعاني الذهنية والعواطف النفسية، وإبرازها في صور حسية حية، تجلي المعاني المستورة وتكشف الخبايا المجهولة في صور أسرة تستهوي القلب، وتمتلك النفس، بما يبثه فيها من إحساس صادق وشعور حي.

وتصوير الطنطاوي وخياله - كما رأينا - وسيلة لإبراز تصوره الإسلامي ونقله، وتعميق الإحساس به؛ حتى أيقنا بذلك أن الخيال من الوسائل المهمة التي يعتمد عليها الداعية والأديب في توصيل أفكاره ومشاعره وعواطفه وتثبيتها في الأذهان؛ إذ إن تصوير المعاني الذهنية والخواطر النفسية في صور حسية يجعلها أكثر وضوحاً، وأعمق تأثيراً، وأقوى حجة في تثبيت المعنى «لأنها حينئذ تخاطب الحس والوجدان وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأضواء والأصدا، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد. ولهذه الطريقة فضلها. ولا شك - في أداء الدعوة لكل عقيدة...»^(١).

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه. سيد قطب، ص ١٢١.

الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي

وقد وظف الطنطاوي هذه الموهبة التصويرية واستفاد من طاقاتها التأثيرية في تحريك الوجدان، وتوجيه العواطف، لاستحباب الحسن وتجميل الفضائل والقيم والحث عليها، وتبغيض الرذائل بعرضها في صور كريهة منفردة بارزة تلفت الانتباه وتنبه الإحساس.

وبهذا أتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ محمد سعيد المولوي: في أن الطنطاوي - رحمه الله - قد استفاد من كل المناهج المتبعة في تكوين الصورة الفنية، والأدبية، والنفسية، والرمزية، دون اعتماد أو التزام بأي منها، حيث كان يهدف بصوره التأثير في المتلقي، ونقل أحاسيسه ومشاعره إليه، متوسلاً إلى ذلك بكل طاقات الصورة من حركة، وتلوين، وتشخيص، وتجسيم، ممتزج بعواطفه ومشاعره بالقدر الذي يتناسب مع الفكرة، ويتلاءم مع تحقيق الهدف، مما أضفى على صورهِ جمالا وبهاءً، وأكسبها تأثيراً ونفاذاً...^(١).



(١) الأدب الإسلامي «الصورة الأدبية الفنية في أدب علي الطنطاوي»، ص ٤٥ - ٤٨.

الخاتمة

لقد تبين مما سبق أن الطنطاوي قد عاش حياة طويلة خصبة، تنقل فيها بين حدائق الأدب، وتجارب الحياة، فامتزجتا في نفسه، وأفرزتا أدبا خاصاً، مزجه بحكمته، وحلاه بموهبته؛ لنرى فيه متعة الأدب وجمال الحياة؛ حيث كان يقوده في ذلك، فكر واع، واطلاع واسع، وحس يقظ، وقلم بصير، استوعب ثقافة الماضي وجملها بثقافة العصر، حتى سرت في أدبه روح جديدة من ينابيع متصلة، جمعت بين الأصالة والمعاصرة في تناغم جميل وامتداد رائع، نطل من نافذته على قضايا الماضي؛ لنستضيء بها في الحاضر والمستقبل.

ولعل هذا البحث - بعد هذه الجولات في أدب الطنطاوي - يكون قد كشف عن ملامح الاتجاه الإسلامي في أدب الطنطاوي، وحقق النتائج التي استهدفها وهي:

- التعرف على شخصية ذالكم الكاتب العظيم في سلوكه القويم، وعوامل بنائه، وتكوينه الفكري والأدبي، وذلك من خلال التعرف على ظروف نشأته، وما كان يدور في مجتمعه وبيئته.
- كشف العلاقة بين الأدب والدين، وفضح افتعال الخصومة بينهما، وصلاحيّة ترادف مصطلح «الأدب الديني» لمصطلح «الأدب الإسلامي».

- التعرف على أدب الطنطاوي من خلال عرض بعض نماذجه، والتي قد تطول رغبة مني في إعطاء صورة واضحة لهذا الأدب الفني بملامحه الإسلامية، والذي يغذي الفكر، وينمي الذوق، ويرتقي بالأسلوب والإحساس.
- تلمس المظاهر الإسلامية لأدب الطنطاوي في ميادينه المختلفة، من خلال التعرف على سيره في موضوعاته وأفكاره، وأسلوبه ووجدانه، وخياله الإسلامي الوثاب.
- وقد تبين من هذا البحث، أن الطنطاوي كان مثلاً للأديب الإسلامي الحق، الذي يسخر أدبه، وفكره، ومواهبه لإيقاظ المجتمع وإنقاذه من انحرافاته، العقدية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والفكرية.. حيث كان أديبا داعية، تفاعل مع مجتمعه، وعرض لأزماته وقضاياها حلولاً إسلامية حقيقية وواقعية في صور فنية مؤثرة؛ ليأخذ بيده نحو النهوض والارتقاء، ويقفز به إلى الريادة والسعادة في ظل الإسلام.
- وأن الطنطاوي كان من أوائل من دعا إلى عرض الإسلام عرضاً سهلاً ميسراً، والتعريف به تعريفاً موجزاً، يُسهّل العلم به على من يجهله، والإحاطة بجوانبه وقضاياها، وكان أول من نقل الجمعيات الأهلية إلى دمشق، وعمل على إقامتها، وكان من أبرز من جاهدوا الاحتلال قولا وعملا.
- كان الطنطاوي في أدبه مصورا ومتأملاً، أحسن استغلال موهبته التصويرية الفائقة التي عكست صدق عاطفته، وقوة انفعاله، ورقة

إحساسه، وعمق إدراكه للمحسوسات والمعنويات في إبراز جمال الأشياء وقبحها وفق المنهج الإسلامي القويم الذي يرفع من شأن القيمة ويُجَمِّلُها، ويُبْجِش الرذيلة ويُمَقِّتُها؛ سعياً لرفع المجتمع إلى المثل الإسلامي الأعلى بعيداً عن الواقع الأدنى.

• تبين من هذا البحث إدراك الطنطاوي للإسلام على حقيقته الشاملة وانفعاله به، ومن ثم حاول تقديمه في صور فنية رائعة، بما وهب من طبيعة فنية، ونفس ذكية قوية استوعبت إحياءات الإسلام وعطاءاته الضخمة في عالم الفن والتأثير البناء، فانطلق منه بشحنات إيمانية ضخمة، وطاقات إبداعية فائقة، أضفت على المعاني روحاً جديدة، وألبست الأفكار أثواباً قشبية، أججت المشاعر، وأيقظت العواطف، وغزت القلوب، وامتزجت بالنفوس، فكان الطنطاوي لذلك مثالا رائعا للأديب المسلم الذي يستطيع أن يخترق نياط القلوب، ويفتح أسوار النفوس؛ ليجد له مكاناً لا يشغله غيره؛ إذ يخاطب العقل ويحاور القلب بوعي تام لما تتطلبه النفوس من وسائل الإقناع والتأثير؛ ليقتلع منها ما يريد ويغرس فيها ما يحب.

• يلاحظ في أدب الطنطاوي سريان الروح الإسلامية، وغزارة التوجيهات واللمحات الإيمانية؛ حتى لنراها بارزة في ألفاظه، وصوره، وأفكاره، ومعالجته الواعية بما يدور حوله، وما يستحدث في فلكه من نظم وأفكار، فيضفي ذلك على أدبه حركة وحياة، تخطو بنا خطوات واسعة نحو بناء القيم، وتصحيح الفكر، وتقويم السلوك والإحساس بالجمال، حيث كان يقدم في كل ذلك النموذج الأمثل، والشكل الأنسب

في الوصول إلى تلك الغاية، وتحقيق هذه النتيجة؛ وليكون من ذلك رداً على التساؤلات والشبهات التي تنفي عن الأدب الإسلامي الارتقاء والنمو في جوانب التعبير والفن، شكلاً ومضموناً.

- واتضح من خلال البحث ثبات الطنطاوي في التزامه المنهج الإسلامي المتكامل في أسلوبه، وألفاظه، في خياله، ووجدانه، في اتزان عواطفه واعتدال رؤيته...؛ حيث كان ذا نفس قوية ثابتة لم تنصهر إلا في قالبها الإسلامي، فلم يكن يوماً رداءً لذوي النفوس اللينة التي تقبل الانصهار في كل قالب يدر عليها نفعاً أو يدفع عنها ضرراً فأقنعنا بحقيقة انتساب الأدب إلى الإسلام وصحة المصطلح الحديث (الأدب الإسلامي).
- اتضحت براعة الطنطاوي الأسلوبية، وموهبته الأدبية؛ إذ نراه ذا قدرة مواتية، وأسلوب مطاوع، ما إن يوجه اهتمامه إلى شيء. مهما كان ضئيلاً خفياً. حتى يخرج لنا منه برؤية شاملة، لها تأثير في الحياة؛ ليمتع بذلك القارئ، ويلذ السامع ويرتقي بذوقه وفكره وسلوكه.
- اتضحت مرونة أسلوب الطنطاوي، ومطاوعته له في تلوينه الأسلوب، ومراعاته به لمستوى المتلقين، فمرة يعلو به إلى القوة والمتانة والعمق والرصانة ليناسب الخاصة، ومرة يميل به نحو السهولة والوضوح والقرب ليناسب العامة.
- أحسن الطنطاوي في أدبه توظيف معارفه الثقافية، وتجاربه في الحياة، وطاقاته الإيمانية والنفسية في إبراز جمال الإسلام، وكمال منهجه، وعظمة رجاله، وثناء نتاجه، وعطاء تاريخه.

• ومن أهم ما يلفت الانتباه في أدب الطنطاوي، صدقه وقربه وحرصه على قارئه، فهو ينقل عن نفسه، ويقيّد خواطره، ويظهر مكنون فكره بموهبة قادرة، تجعله واضحاً قريباً صادقاً، كأنه يحدثك ويحاورك، لا حجاب بينك وبينه حتى تكاد ترى صورته في أدبه، وتلمس هيئته في قوله، مما يقودك إلى حبه ويغريك بتتبع قوله، حتى لا تفضل عليه أحداً، وتحار في سر جمال أسلوبه وشدة أسرهِ، متسائلاً: هل هو في سهولة العبارة، أم في لطف الإشارة، أم في اختيار الكلمة وارتفاع المعنى، أم في دقة الفكرة وجمال العرض، أم في صدق العاطفة وانفعال الوجدان، أم في قربهِ من النفس وبعده عن التعالي والكبر والتكلف؟... وعند التأمل يبدو السر في جمال أسلوبه وشدة أسرهِ في اشتماله على تلك الخصائص كلها.

• نجح الطنطاوي - بما قدمه في أدبه من فكر متزن وموضوعات حية - أن يرينا دور الأدب الإسلامي في تصحيح المفاهيم، وإصلاح خلل الحياة، وأن يرينا بأسلوبه العذب؛ جمال العربية ولذتها وكفايتها في تحقيق المطلوب، وأن ينقل إلينا أحاسيسه الإسلامية وانفعالاته القوية فيما تناوله من خلال وجدانه الصادق وشعوره اليقظ،

• نقل إلينا الطنطاوي مشاهدته وخواطره بأبعادها وملامحها في نفسه، من خلال خياله الإسلامي، وذوقه الإنساني الذي يبرز الشيء على حقيقته دون زيف أو خداع؛ ليحقق الغاية المنشودة من الأدب الإسلامي في علاقته بالنفس والكون والحياة.

- ودل هذا البحث على أن اتجاه الطنطاوي وسيره الإسلامي في أدبه كان استجابة لمشاعره الصادقة ونفسه الممتلئة بعظمة الإسلام، وإحساسه العميق بقيمه ورجاله، وكان تلبية لحاجة مجتمعه إلى تدعيم القيم وبنائها، وتنمية الوعي الإسلامي وارتقائه، ليتسنى له الصمود والثبات في مواجهة الهجمات الشرسة، والمتغيرات التي زلزلت كيان الأمة الإسلامية ونالت منها منذ بدايات القرن الماضي وحتى اليوم.



توصيات البحث

أوصي بالاهتمام بالأدب الإسلامي وتشجيعه بشتى الوسائل، ودراسته للتعرف على ملامحه وخصائصه التي نأمل أن تقود الأدباء والمبدعين إلى تواصل هذا الاتجاه وامتداده، والتي لا يكون إلا بوجوده والتشبع به والتمثل له، حيث ضاعت كثير من المواهب لغياب هذا الأدب، وطمس اتجاهه، وانغماسها في الغث المطروح والسير في ركابه.

تشجيع دراسة الأدب الإسلامي وبخاصة النشر الفني لدوره القوي، ومنهجه القويم في توجيه الجماهير، وإمتاعهم وتثقيفهم وفق المنهج الإسلامي الذي يرتقي بالأذواق والعواطف والأفكار.

وإنني لأهيب برجال الإعلام والتعليم الذين أشادوا بكل تافه وصفقوا لكل ناعق، وفتحوا الباب لكل لاجئ. أن يعيدوا النظر فيما ينفع وما يضر؛ ليجعلوا الإسلام ميزانهم، ورجالهم أركانهم، ليرفعوا أهل العلم والأدب الحقيقيين الذين ترتفع بهم الأذواق والأفكار وتتحقق بهم الغايات والأهداف؛ وليطمسوا أهل الأدب الزائف الذي يزيّف على الناس الحقائق بإفساد القيم وتحريك الغرائز وإثارة الشبهات.

ولما كان الإسلام يفرض على أتباعه تقدير الكفاءات والاستفادة بالقدرات البشرية الهائلة، ومنحها ما تستحق من الإجلال والتكريم،

فإني أقترح على الهيئات الإسلامية والوسائل الإعلامية والتعليمية أن تهتم بالإفادة من تراث الطنطاوي الزاخر: خطابة، ومقالة، وقصة، وتراجماً.

وأرى أن تقوم لجنة متخصصة بترجمة ما يمكن من تراث الطنطاوي وأمثاله إلى اللغات الأجنبية السائدة؛ ليكون في تناول المسلمين غير الناطقين بالعربية والمهتمين بالدراسات الإسلامية، لما لذلك من عظيم الأثر وكبير الفائدة إن شاء الله.

وأوصي القائمين على شؤون التربية والتعليم بضرورة الالتفات إلى كتب الطنطاوي وأمثاله.. التربوية والعقدية والتاريخية... والاستفادة بما رسمه فيها من صحة المنهج، وجمال العرض، وعذوبة الأسلوب، وإبراز الحقائق، ومناقشة الأفكار.

أن تُدرج مختارات من أدب الطنطاوي للدراسة والنقد ضمن مناهج الأدب والنقد في المعاهد والمدارس والجامعات.

أن ينال الأدب الإسلامي الاهتمام الذي يتناسب مع مكانته ومنزلته وحاجة الأمة إليه، وخاصة في تلك الفترة التي تمادى فيها أعداء الإسلام في طغيانهم وعبثهم واتهامهم للإسلام ورجاله بالجمود والقصور؛ ليتسنى التصدي لباطلهم ومجابهة انحرافهم، بما يعيد الحق إلى نصابه، ويدفع الباطل إلى أصحابه.

أن تقوم الهيئات الإسلامية والمؤسسات الدعوية - كالأزهر، والأوقاف، ووزارة الثقافة... بدعم المطبوعات والأعمال الإسلامية.

المسموعة والمرئية والمقروءة - للطنطاوي وأمثاله؛ لتصبح في متناول الجميع.

أن تفتح نوافذ جديدة لنشر الأدب الإسلامي، وإبراز رجاله عبر الوسائل المختلفة - الراد، والرئي، والصحف، والمجلات، والإنترنت - التي تواكب تطورات العصر، وحاجة المجتمع المسلم إليها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.



المراجع

- القرآن الكريم.

- ١- أبو بكر الصديق - علي الطنطاوي. دار المنارة - جدة - ط٤. ١٩٩٤م..
- ٢- أثر الإسلام في الشعر الحديث في سورية - محمد عادل الهاشمي. دار المنارة - الأردن، ط١. ١٩٨٦م.
- ٣- أحمد بن عرفان الشهيد - علي الطنطاوي - دار الفكر - دمشق ط٢. ١٩٧٩م.
- ٤- أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر - علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي - دار المنارة - جدة - ط١١. ١٩٩٩م.
- ٥- بغداد.. مشاهدات وذكريات - علي الطنطاوي - دار المنارة - جدة - ط٢. ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٦- بين الأدب والصحافة - فاروق خورشيد - دار الفكر العربي - ١٩٧٢م.
- ٧- بين الأدب والنقد - د/ محمد أحمد رجب البيومي - المطبعة الفنية - ط١. ١٩٩٧م.
- ٨- تذكرة الدعاة - البهي الخولي - دار التراث - القاهرة ط ٨. ١٩٨٧م.
- ٩- تاريخ بغداد - أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت (بدون).
- ١٠- تعريف عام بدين الإسلام - علي الطنطاوي - دار البشير - طنطا - مصر، ط٣. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ١١- جابر عشرات الكرام - علي الطنطاوي - دار الفكر - دمشق، ط٣. ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- ١٢- دراسات في البيان القرآني من الوجهة الأدبية - د/ عبد القادر رزق الطويل - دار البيان - القاهرة - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- ١٣- دراسات في النص الشعري - عبده بدوي - دار قباء - القاهرة (بدون)
- ١٤- دمشق صور من جمالها .. وعبر من نضالها - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة، ط٣ - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ١٥- ذكريات علي الطنطاوي - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط١ - ١٩٨٩ م
- ١٦- رجال من التاريخ - علي الطنطاوي - دار البشير، طنطا، مصر - ط١ - ١٩٩٨ م.
- ١٧- سنن أبي داود - الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي - تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر (بدون) .
- ١٨- سنن ابن ماجة - للإمام/ عبد الله بن يزيد القزويني: ابن ماجة - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث، بيروت - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ١٩- صحيح البخاري - الجامع الصحيح المختصر - للإمام محمد بن إسماعيل البخاري - تحقيق د/ مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير، ط٣ - ١٤٠٧ هـ.
- ٢٠- صحيح مسلم بشرح النووي - دار الحديث - ط٣ - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٢١- صور وخواطر - علي الطنطاوي - دار المنارة. جدة - ط٤ - ١٩٩٨ م
- ٢٢- صور من الشرق في إندونيسيا - علي الطنطاوي، ط١ - ١٩٩٢ م.
- ٢٣- عبد الرحمن بن عوف - علي الطنطاوي - دار الفكر، دمشق - بيروت، ط٢ - ١٩٧٩ م.
- ٢٤- عبد الله بن المبارك - علي الطنطاوي - دار الفكر - دمشق - بيروت، ط٢ - ١٩٧٩ م.
- ٢٥- عرس الشهداء - علي الطنطاوي - تقديم وتعليق محمد عبد الله الخطيب - دار المنارة الحديثة، مصر - ط١ - ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م.

٢٦. علم البديع دراسة تاريخية وفنية - د/ بسيوني عبد الفتاح بسيوني - مطبعة السعادة - ط١. ١٩٨٧م.
٢٧. علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقه الأدياء - مجاهد مأمون ديرانية - دار القلم، دمشق - ط١. ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.
٢٨. فتح الباري بشرح صحيح البخاري - للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - المكتبة السلفية (بدون) .
٢٩. فكر ومباحث - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٣. ١٩٩٠م
٣٠. فصول إسلامية - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٤. ١٩٩٠م.
٣١. فن الخطابة - د/ أحمد محمد الحوفي - دار نهضة مصر - ط١. ١٩٩٦م.
٣٢. فن المقال في الأدب العربي المعاصر - د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين - ط٢. ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
٣٣. في الأدب الإسلامي المعاصر - «دراسة وتطبيق» محمد حسن بريغش - مكتبة المنار، الأردن - ط٢. ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
٣٤. في محيط النقد الأدبي - د/ إبراهيم علي أبو خشب - (بدون) .
٣٥. في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق - ط١١. ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
٣٦. في النقد الأدبي الإسلامي - د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين - مطبعة الشناوي - ١٩٩٣م.
٣٧. في سبيل الإصلاح - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٣. ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
٣٨. قصص من التاريخ - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٦. ١٩٩٦م.
٣٩. قصص من الحياة - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط١. ١٩٩٠م
٤٠. قصة حياة عمر - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط١. ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٤١. قيم حضارية في القرآن الكريم - توفيق محمد سبع - دار المنار، القاهرة (بدون).
٤٢. لسان العرب - جمال الدين بن منظور - دار الفكر - بيروت، ط ١ - ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
٤٣. الأدب الإسلامي قضية وبناء - د/ سعد أبو الرضا - عالم المعرفة - جدة، ط ١ - ١٩٨٣ م.
٤٤. الأديب السوري علي الطنطاوي - د/ عبد الحميد حامد شعبان - دار الأرقم - مصر، ط ١ - ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
٤٥. الأحداث العربية في تاريخها الحديث - د/ طه شرف - شركة توزيع الجمهورية (بدون).
٤٦. الأسلوب، د/ أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية، ط ٨ - ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.
٤٧. الإصابة في تمييز الصحابة - الإمام ابن حجر العسقلاني - تحقيق علي محمد البجاوي - دار الجيل - بيروت ط ١ - ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م.
٤٨. الإسلام في الأدب العربي المعاصر - د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين (بدون).
٤٩. الإسلامية والمذاهب الأدبية - نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣ - ١٩٨٣ م.
٥٠. الإمام النووي - علي الطنطاوي - دار الفكر - دمشق - بيروت، ط ٢ - ١٩٧٩ م.
٥١. البيان والتبيين - لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت - (بدون).
٥٢. التاجر والقائد - علي الطنطاوي - دار الفكر دمشق - بيروت - ط ٣ - ١٤١٠ هـ ١٩٨١ م.

٥٣. التصوير البياني.. دراسة تحليلية في مسائل البيان- د/ محمد موسى- دار التضامن، القاهرة- ط٢- ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٥٤. العقيدة الدينية وأهميتها في حياة الإنسان- د/ محمود حمدي زقزوق- هدية مجلة الأزهر لشهر رجب ١٤١٥هـ.
٥٥. الفوز الثقافي يمتد في فراغنا- محمد الغزالي- مؤسسة الشرق، عمان- الأردن ط٢- ١٩٨٥م.
٥٦. الفاخر- لأبي طالب المفضل بن سلمة- تحقيق عبد العليم الطحاوي- الهيئة المصرية العامة (بدون).
٥٧. الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة- أنيس المقدسي- دار العلم للملايين، بيروت.
٥٨. القصة القصيرة.. دراسة ومختارات- د/ الطاهر أحمد مكي- دار المعارف بالقاهرة، ط٥- ١٩٨٨م.
٥٩. القاضي شريك- علي الطنطاوي- دار الفكر- دمشق- بيروت، ط٢- ١٩٧٩م.
٦٠. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- ابن الأثير- المكتبة العصرية- بيروت ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
٦١. المجرم ومدير الشرطة- علي الطنطاوي- دار الفكر- دمشق- بيروت، ط٣- ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٦٢. المستدرك على الصحيحين- للإمام محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري- تحقيق محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- ط١- ١٤١١هـ
٦٣. المصطلحات الأدبية الحديثة- د/ محمد عناني- الشركة المصرية العالمية للنشر، ط٢- ١٩٩٧م.
٦٤. المعجم الأوسط- الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني- دار الحرمين- ١٤١٥هـ.

٦٥. المقال وتطوره في الأدب العربي المعاصر - د/ السيد مرسي أبو ذكري - دار المعارف ١٩٨٢ م.
٦٦. المنجد في اللغة والأعلام - فوزي المعلوف - ط ٣٤ - ١٩٩٤ م.
٦٧. المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره - د/ محمد رشاد خليل - دار المنار القاهرة، ط ١ - ١٤٠٤ هـ، ١٩٤٨ م.
٦٨. النقد الأدبي أصوله ومناهجه - سيد قطب - دار الشروق - ط ٧ - ١٩٩٣ م.
٦٩. النقد الأدبي الحديث - د/ محمد غنيمي هلال - دار نهضة مصر ١٩٩٦ م.
٧٠. الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد - د/ أحمد بسام ساعي - دار المنارة، جدة - ط ١ - ١٤٠٥ هـ.
٧١. مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر - د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين - مطبعة السعادة ط ١ - ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.
٧٢. مختصر تفسير ابن كثير - اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني - دار التراث العربي ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
٧٣. مخارج الحروف وصفاتها - أبو الإصبع السماتي - تحقيق د/ محمد يعقوب تركستاني - ط ٢ - ١٤٢٠ هـ ١٩٩١ م.
٧٤. معجم الأعلام - بسام عبد الوهاب الجابي - دار الجفان والجابي، ط ١ - ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
٧٥. معجم مصطلحات الأدب - مجدي وهبة - مكتبة لبنان (بدون).
٧٦. مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي - د/ مصطفى عليان - دار المنارة، جدة - ط ١ - ١٩٨٥ م.
٧٧. مقدمة في النقد الأدبي - د/ علي جواد الطاهر - المكتبة العالمية، بغداد، ط ٨ - ١٩٨٣ م.

- ٧٨- مقالات في كلمات - علي الطنطاوي - ج ١ - دار المنارة، جدة - ط ٢ - ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م.
- ٧٩- مقالات في كلمات - علي الطنطاوي - ج ٢ - جمع وترتيب - مجاهد مأمون ديرانية - ط ١ - ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.
- ٨٠- مع الناس - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط ٣ - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٨١- من حديث النفس - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط ٣ - ١٩٩٨ م.
- ٨٢- من نفحات الحرم - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط ٣ - ١٩٩٧ م.
- ٨٣- من هنا نعلم - محمد الغزالي - دار الكتب الإسلامية - ط ٥.
- ٨٤- منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية - علي خالد السداني - المكتبة العصرية - ط ١ - ١٩٨٩ م.
- ٨٥- موسوعة التاريخ الإسلامي - د/ أحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية - ط ٣ - ١٩٧٧ م.
- ٨٦- نحو نظرية للأدب الإسلامي - د/ محمد أحمد حمدون - إصدارات المنهل، جدة ط ١ - ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦ م.
- ٨٧- هتاف المجد - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط ٣ - ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.
- ٨٨- هكذا رباني جدي علي الطنطاوي - عابدة المؤيد العظم - دار المنارة، جدة - ط ١ - ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.
- ٨٩- وزارة بعنقود عنب - علي الطنطاوي - دار الفكر، دمشق - بيروت ط ٣ - ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.



المجلات والصحف

١. مجلة الأدب الإسلامي - ع - ٣٤، ٣٥، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٢. مجلة الرسالة، ع - ٧٤٢ - السنة ١٥ - ذي القعدة ١٣٦٦هـ، ديسمبر ١٩٤٧م.
٣. مجلة الفتح عام ١٢ (٥٨٩١) الخميس ١٦ ذي الحجة ١٣٥٦هـ.
٤. مجلة الصحو الإسلامية - الهند - ع - ٣٦ - السنة ١٣ محرم ١٤٢١هـ، إبريل ٢٠٠٠م.
٥. المجلة العربية - ع - ٢٦٧ - السنة ٢٤ - ربيع الآخر ١٤٢٠هـ، أغسطس ١٩٩٩م.
٦. مجلة المنهل - ع - ٥٦١ - رجب ١٤٢٠هـ، أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٩م.
٧. مجلة المشكاة - ع - ١١ السنة ٥٣ - ذو الحجة محرم صفر ١٤٠٩ - ١٤١٠هـ
٨. مجلة فجر الإسلام - ع - ٢١ رجب شعبان.
٩. مجلة هاجر أم المسلمين - ع - ٥٠ السنة ١٥ - جمادى الأولى ١٤٢٠هـ، أغسطس ١٩٩٩م.
١٠. صحيفة الشعب المصرية - ع - ٢ يوليو ١٩٩٩م.



منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.
- ٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.
- ١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.
- ١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.
- ١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.
- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة الحمد.
- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

- ٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
- ٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للآداب الإسلامية.
- ٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.
- ٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزديناه.
- ٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.
- ٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.
- ٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.
- ٢٩- ديوان «عقد الروح»، نبيلة الخطيب.
- ٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.
- ٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينه قدور.
- ٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية إبراهيم مروشي.
- ٣٣- نوبة قلبية - قصص قصيرة من الأدب الأردني - ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم.
- ٣٤- مخيم يا وطن - رواية - دعد شرash الناصر.
- ٣٥- ديوان: «شدو الغرباء»، أسامة كامل الخريبي.

- ٣٦- ديوان: «إسراء.. لواء غير ذي زرع»، محمود محمد كلزي.
- ٣٧- نحو منهج إسلامي للرواية.
- ٣٨- الشاعر والمفكر الإسلامي: محمد إقبال.
- ٣٩- مسرحيات إسلامية قصيرة.
- ٤٠- الكنتي - مجموعة قصصية - د. عبدالرزاق حسين.
- ٤١- ديوان: «يا طائر الأيك» - أمني حاتم بسيسو.
- ٤٢- شعراء من الأدب التركي - ثلاثة وثلاثون شاعرًا مختارًا - د. عوني عمر لطفي أوغلو.
- ٤٣- الاتجاه الإسلامي في أدب الطنطاوي - وفا علي وفا.



صدر في سلسلة أدب الأطفال

- ١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
- ٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.
- ٨- أغنية للقيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.
- ٩- مغامرات عصفور - قصص - عبد الجواد الحمزاوي.
- ١٠- شيماء - قصص - حسن الغشتول.
- ١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.
- ١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبد المعطي مطاوع.
- ١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبد الحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص.ب. ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ - ٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org